فيء الروح (٢)

(زخات حبر.. وياسمين..)



اسم الكتاب:	فيء الروح.. زخات حبر.. وياسمين.. الجزء الثاني
التأليف:	وصال تقة
موضوع الكتاب:	خواطر أدبية
عدد الصفحات:	207 صفحة
عدد الملازم:	13 ملزمة
مقاس الكتاب:	20 × 14
عدد الطبعات:	الطبعة الأولى
رقم الإيداع:	2017 / 2320
الترقيم الدولي:	ISBN : 978 - 977 - 278 - 605 - 3

1438 هـ

2017 م

التوزيع والنشر

دار البشير للثقافة والعلوم

darelbasheer@hotmail.com

darelbasheeralla@gmail.com

ت: 01012355714 - 01152806533

فيء الروح (٢)

(زخات حبر.. وياسمين..)

وصال تقة





1. بوح على مراقي المساء.
2. فوارق ومفارقات.
3. تلويحة وداع.
4. وشايات المرايا.
5. زفرات على أعتاب النهاية.
6. أنداح التوبة ومغاسل الأوبة.
7. تباريح الألم وتواشيح الأمل.
8. إلى صديقتي.
9. خارج السرب.
10. مقامات الجمال ومعارج الكمال.



بوح على مراقي المساء..

- أنا لا أسامر المساء.. نجومه تغتاب قصيدتي.. لكنني مهووسة بهديل الحمائم تعزف شجنها.. مرثيتها خضبت جدائلها.. فأجرى الحنين رويَّها، وتاهت بين الحروف قصيدتي تغازل نُوَاحها.. تغازل الصباح.
- وهذا دمع السماء قد اختلط بغزل يحيك أكفان يوم قد قضى، وورقة أخرى قد سقطت من سجل أعمارنا الشاردة التائهة المتقلبة في مفارقات الحياة.. لحظة مهيبة تلك التي شهدت فيها بنيات المزن احتضارَ خيوط الضوء وميلاد ناشئة هي أشد وطئًا وأقوم قيلًا.. يكفكف المزنُ دمعه.. يحبس تلك التي لم تذرف بعد، ويودِّع تلك التي غاضت في انكسار ذبالة مصباح السماء المتدثر بشُعِّ الذرى، على الأرض المجدبة العطشى للرواء.. لحظة وداع مهيبة، تلك التي أيقنت فيها أن ما غاض ما له من عودة، وما شاخ ما له من عنفوان.. وأن سقط منازل المرتحلين أنساء.. أنساء.
- امنحوا المساءات قناديلَ؛ كي تسرج أحلامها.. الليل لا ينام، لكنه يتقن صنع الأحلام.

- شجن وتدبر.. وعطر الكلمات.. سريالية تودعك جفن السماء.. وترسم ملامحك بريشة السكينة.
- لليل لغته التي تشبه بوح الزنابق.. ولغته التي تشبه همهمات الموت.. ولغته التي تعبق في المحاريب بذكر الواسع المنان، ذي العطاء والكرم والجود.
- الليل هذا المساء مُزنة، قد ابتسمت لمرآها شقوق الخمائل، فأينعت البتلات قبل أن تُنجَب، وحيّا عبقها الجمان المعلق في نحر السماء.
- أهديت الليل ياسمينة.. فأطل متلحفًا بالبياض.
- عابس هذا المساء، نزق.. القمر الذي شهد مراسيم تسليم الشمس قطوف الياسمين هذا الصباح، تشوّف لأن يتضوع أيضًا من عطرها. التهمته الغيرة فغاب.. وأضرمت في شع السماء حرائقها نجومًا.
- أوجع من نسيم الصباح، يتسلل المساء إلى دمي.. وأنا المعجونة بالفوانيس..

أتدثر من النور حينًا.. وحينًا من النسيم..

لكن الليل يسكنني..

لكن الليل يسكنني.

- السماء الليلة مرتبكة.. كأن لم تمطر من قبل.. والغيم واجمٌ مطرق.. يبحث عن سر الروح في قطرة مطر.
- حري بالليل أن يخرز القصائد؛ كي يحجب وجه النهار.. يشتفُّ النور يصنع منه نجومًا ومعلقات دهشة؛ كي لا يفقد الحياة باعتيادية العتمة.
- اكنس فؤادك واسكب العطر.. قبل أن تقتحم أبواب المساء.
- عند المساء،

يا وجع المساء، وحرقة المساء، وحيرة المساء!

عند أعتابه تتجمهر كل الآلام، وكل الخيبات، وكل الندوب.

فجأة، يستفيق الجرح الذي أنهكت نفسك كل اليوم تمنع نكْأه، وتهجم عليك كل النوائب، وتقفز بك الذاكرة إلى أعماقها الموشومة بالأدواء، وتتبختر أمامك كلُّ الوساوس، وكل الهواجس، وكل الأفكار السوداء.

دعوة بجوف الليل يسجد فيها القلب سجودَ الشاكرين الطامعين في خزائن رحمةٍ وجودِ ربٍّ رحيم جواد كريم. يغتسل فيها القلب قبل العين من أدران سوءِ الظن، ومن شح المجبولة على التقتير.. وتسرج الروح الظمآى في ملكوت مجيب الدعوات، جاعل تواتر الفرج والشدة سنةً كونية تقلبها بين الصبر والشكر، وتشحذها بالرجاء واليقين، وحسن الظن بالله، وبما عند الله.

يا رب.. كرمَك الذي أنت أهلٌ له، وجودَك الذي وعدت به عبادك الموقنين، ويقينًا يجبرُ كسر القلب الكليم.

- في الليل، سرٌّ كلما قارب اليأس أن يدمس حجبَه، أرشدني إلى الفوانيس.. وإلى شعلة باتت تحرس الظل من نضوب الشجر قربه.
- الليل قسمة الغرباء، والحيارى.. والعاشقين.
- البأس المتهادي بين جفون الليل يسفع منها الأهذاب، والضجر المتربص بأحداق النجوم الغافية.. يهديك لأن تسقي ما بين منكبيك دمعًا صادقًا تروي به عواذ الأيام.. وأن تضوع ناصيتك الخاطئة بنفحات الأسحار.. وعطر الأحلام المختزلة في دعوة.. وسجدة.
- أذان المغرب يُرفع الآن معلنًا نهاية يومك أيها التائه في دروب الحياة، وانقفال صحيفتك على كسيرها وعويرها وأعجفها وهزيلها.. فيا ليت شعري، صحيفة تلك أوصافها، تمنع - اتفاقًا - الإجزاء.. فاللهم يا شكور يا كريم، طمِّعنا في ثوابك، ويا منان رجاؤنا في عطائك، ويا غفور يا ستير، اغفر ذنوبنا، واستر معايبنا، واجبر يا جبار ضعفنا وتقصيرنا.
- ومن سيصدق!؟ أن النجوم تُخُم بين سرِّي الدفين وقصاصات بوحي الحزين.. وأن القمر كفنُ النبض، وحنوط الروح السقيمة.

- ويعود طيفك يا أيها المساء حاملًا بين الجفنين زفرة.. ترتمي بين يديَّ زنبقة من ذكرى.. فيغمض النجمُ عينيه يواسي دمع السماء.
- نزّ جفن المساء؛ فسقى ثغامًا في الفؤاد قد شطأ.. سمعت أنينه الزنابق فأذاعت سره للعوائذ.
- يضيق الوقت بالاختصار، فيعزف الليل مطولات دهشة.. وحدهم هؤلاء الساهدون يحسنون فن الإصغاء لزفرات النجوم.. ووحدهم يستقبلون ذات الزفرات بترنيمة.
- لا تحاولوا فك طلاسم الليل.. شطحاته تصيب الحرف بالهذيان.. اثملوا.. أو انفضوا عنكم أطيافه.
- السماء التي أعارت بدرها للزوال؛ استردته.. ومعه قبسٌ من نهار يبدد حلكةً خضبت جدائلها المسدلة.
- سأقتسم الليل بيني وبيني، نصفه أرصه قلائد وشوارد وعوائذ.. ونصفه الآخر أحيكه حكايا تدثر المساء من خفقة الانتظار.. وأسقيه ملح الجفون أمطره دعوات.. وأعيذ نصفيه من غاسق واقب، ومن كل طارق، إلا طارقٍ يطرق بخير.
- لا تسألوا المساءَ عن سر السنابل والزنابق، وسنا الأمنيات.. من زجاجته كان العطر، ومن زيته أشعل المصابيح.

- باغت الليل بالفوانيس، وأحرق سرَّه الدفين بشعلة.. ودعِ النوارس تلوِّنه بالبياض.
- ستائر الليل تدثر كل شيء.. عدا ثقب الروح.
- يرغمني الصباح على فتح النوافذ.. وأنا المسكونة بالظلام.
- حبات الرمان التي نسيها الخريف بين أكمام الغيم، قد أنجبت مطرًا.. فاستعارالليل بياضَ النوارس، وحياء الزنابق، ووتر القوس كي يعزف لكانون ترانيم الحياة.
- انشغلت اليوم عن فتح نوافذي لاستقبال الصبح، فانتهى اليوم عندي قبل أن يبدأ، وحضر المساء. ولما تداعب جفوني أشعة الشمس.. كل الأفعال الصغيرة والكبيرة التي قمت بها لم تملأ فراغًا ليس له من معالمٍ سوى أرقام مكرورة، تمر أمام أعيننا كالشريط الأحمر المستعجل على شاشة تلفاز.. يالَلوعة الرحيل قبل الميلاد!
- ليس يؤذي المساء إذا ما المساء نبت من عيون النجم.. سوى الغرق في الأشياء العنيدة.
- يرتبك المساء أمام تمتمات الألغاز.. تفوت عليه شهقة البياض، وهمسة النجم، وأن يستشرف عبق الربيع.
- مساؤك، أيتها الكلمات التي يعجز الليل عن فكّ ألغازها.. مساؤك.. أيها الحرف الرقيق.. أيها المتسربل بالحياء، المتعثر بين المعاني.. ينثر العبق بين السطور.

- ما الذي أستطيع فعله هذا المساء؟

أستطيع أن أكنس الغيم المحدق بالسماء؛ كي تصير أكثر حلكة.. فأسامر الخوف دون أن يرعبني.. وأسامر الظلام.. وأنتشي بحرق الأسئلة العنيدة التي لا تبرحني مذ قررت أن أجعل من المساء حفلًا يوميًّا لشواء الأحلام.

- لا شيء.. غير أن ذبالة الشمس الناعسة تعلن عن نفاد قمح البيادر، ونحيب العصفور الحزين يلهب قلب العشي.. يشطب خضاب السماء، يدثرها بنسيج الليل الزاحف بين رموش النجوم.

لا شيء.. غير أن المساء اغتراب.

- يبدأ اليوم لينتهي كما بدأ، نجرُّ الخطَى، ونُدفع دفعًا لممارسة طقوس الحياة، ولتقمص أدوارنا التي تفرضها دروب الحياة.. ندور كما الرحى، حتى إذا ما باغتنا المساء، أقفلنا صفحة يوم، قدْ مرَّ على كل حال، وتثاقلت أجفاننا عن نومٍ بات الملاذ، وبات أن تحظى به معجزة تستحق الإشادة والإعجاب، قد سرق السهادُ من بريقها البريق، وكدرت الهواجس الملعونة والأفكار المارقة صفوَ الليل، وبهاء الليل، وسكون الليل.

- في الليل لغز يحيرني، كلما حاولت سبره أحالني على الأسحار..

- لا شيء.. غير أن السماء التي تنجب نجمًا، لا تمطر عقود نسرين ولا ياسمين.
- وهذا الصوت الندي المتعالي من المئذنة يصدح بكلمة التوحيد والحيعلة، يذكرنا بأنه ما زال في عمرنا بقية؛ يستحثنا على الاغتسال من درن الدنيا بين يدي الكبير الواحد المتعال.. يعلم الشمس بتنحيها عن عرش اعتلته يومًا كاملًا، ويذكرني بسقوط ورقة أخرى من سجل حياتي المتقلبة في يقينها و حيرتها، وثباتها وانحدارها في براثن العصيان. راحلة أنا كما شمس هذا اليوم الخريفي الباهت، وكل زادي رجاء.. راحلة، وليس لي سوى دمع أذرفه على نفسي ما دمت قادرة على فعل ذلك الآن.. راحلة آفلة.. وباهتة تلك الحياة التي نتشبت بها.. متقلبة كما قلوبنا.. متفلتة كما السكينة فينا.. تشبهنا ونشبهها. ولولا فسيلة في اليد، نرجو غرسها قبل قيام ساعتنا، لحفرنا قبورنا بأيدينا، ولجلسنا على حافتها ننتظر ساعة الرحيل.
- فيا أيتها النجوم المسخرات بأمر ربها، المقتحمة صمتَ الفضاء السابح في أنداح السكينة والوقار، ألا قبسًا من وهجك؛ أنير به فؤادي الماثل بين غياهب المجهول، وأستار الحقيقة وشعار الأسرار والأحلام. ألا ومضة تمزق دثر السراب، وتنسج للوهم حللًا بلون الحقيقة.

- أحب منظر الغروب، لكنني أخشى ساعاتِه.. وأخشى معاني الفرقة والخوف والوجع فيه.. فالغين غربة، والراء رهبة، والواو وداع، والباء بَيْن وبعاد. يفزعني فيه الرحيل.. واضطرار الرحيل.. وفجأة الرحيل.. وفجيعة الرحيل.. يرعبني فيه الأفول بعد الوهج، يحزنني تشظي خيوط الشمس في الأفق، كيف لفظتها أمُّها بعد طول عناق؟، وأنتحب لذبول القمر الرابض بالقرب يبني أمجاده على حطام الراحلين.. أيها الغروب، تمهّل.. ثمة فؤاد يكسره الرحيل.
- لحظة الغروب هي لحظة فراق.. تشبه اتخاذ تلك القرارت السريعة الحاسمة.. أرى - دائما - فيها شمسًا قد أضاءت يومًا كاملًا للكون. واأتحبت كي توصل أشعتها لكل من حولها، لكنها تجد نفسها مضطرة للرحيل، إذ ليس للنور صولة أمام جحافل الظلام.
- أيتها الشمس الراحلة عن شبابيكي، تمهلي حتى أُحمِّلك بضعًا ممّا جاش اليوم بصدري، فلا القمر يحمل أعبائي، ولا النجوم تكتم أسراري.. دعيني أحكي لك حكاياي التي نفد يومي قبل أن أقلدك أطواقها، وداهمني غروبك قبل أن أتمكن من نثرها بين يديك. تمهلي؛ كي أتمسح بأثوابك المسبلة السائرة في دروب الرحيل، علَّها تمسح عن عيني غبش الإياس.. وذبالة أشعتك المتشظية

في الأفق، دعيها تمسح عني أدران الخيبات والخذلان.. تسقيني أنفاسها الغروبية المنسمة بشذى الأعطيات، والمحبة، والسخاء. يا لحظة الوداع الصادق، علميني كيف أنثر محبتي على من حولي كما نثرت أنت نورك في صمت، يومًا كاملًا على كل الكون... علميني كيف أبتسم لإشراقتك المتجددة بتجدد الصباحات.. كيف أعانق خيوطك المتسللة إليَّ بعد كل عتمة.. كيف أتنفس الدفْء وكيف تسقيني لغة العطاء.. علميني أن أحلِّق مع الفراش، وأن أهيم في سماء العصافير.. أن أشدو لها فتتعلم العزف من ألحاني.. أن أنتحب لذبول القمر، وأن أحزن لسقوط أوراق الخريف.. كيف لفظتها أمها بعد طول عناق.. علميني أن أحكي حكايا الربيع، وعلميها كيف تحكيني.. أيتها الخيوط المهاجرة بعد رحلة النور، علمي ابتسامتي كيف تنتظر موعدك الفجري القريب.. وكيف تجعل من الانتظار، ساحات للبوح الجميل.

- هذا المساء، أريد قهوة بيضاء.. قهوة بنكهة القهوة، وبياض اللبن، وطهر البراءة في عيون طفلة.. لا أريدها أن تشارك في جريمة تسويد الليل.

- يعتصر المساء هذا المساء، فينجب من شدق السماء بسمة مغتسلة بطلّ الجفون.. لن يعتذر الفجر.. لن يرحل النور.. ولن ترحل البسمة عن الشفاه.. آيات الفرج تتلى خفاقة في

الأعماق.. فدعونا نستمد الصبر من اعتصار الليل، ومن اختناق العبرات في أحداق النجوم.. ترسلها ومضة.. دعونا نحتسي الإباء المتدفق من عيون القمر الواجم في صدر الفضاء.. دعوا حياتنا الزائفة تنبعث من روايات التسليم والانكسار للرءوف الرحيم. يا أيها السالكون الصابرون المتجلدون، علمونا معاني الرضا.. وكيف نقطف من جراحاتنا عقود ياسمين.. علمونا.. كي نحيا.. فمازلنا نحبو في فساطيط حكمتكم.

- يخبرني المساء أن سرَّ النجم في البقاء، أن يظل عاليًا.. راقيًا.. فإن سقط.. صار كسِقط الأحجار.. أصدقه.. الليلُ لا يَكْذبني.

فوارق ومفارقات..

هاذي أنا..

نثار الروح ودفقها..

وصخب الحنين وبوح الرحيل

إذا ما تعثر نسج السماء بنجمها..

هاذي أنا..

شموع الليالي ودفئها..

وثلج السكون

ووهج الأنين

وجمر اللواعج

إذا ما يومًا

أخطأت عنوانها..

- لا تكن مفتاح خير لغيرك، شرٍّ لنفسك.
- "الإدراك" أول خطوة "للتدارك".
- لسان ينثر الحال لله شكوى.. أم لسان لم نعص به الإله.. لا أحد يعلم أيهما عند الله أنفذ؟
- وأغلب ما يدعوك للتفكير، بل يفرض عليك التفكير، الصراع والاصطدام: تصادم الأفكار في رأسك وتصادمك مع الأحداث.. مع الممكن والمستحيل، مع الخير والشر، مع الشك واليقين، مع الفعل ورد الفعل.. مع الواقع والخيال، مع الإمكانية والمحدودية مع القدرة والعجز.. مع الإقدام والإحجام، فتحاول ترتيب الفوضى التي تكتسح رأسك، وفك شعث ما تداخل فيه؛ فتنتج بذلك فكرًا.
- لكم نضطر في رحلتنا السرمدية للبحث عن السعادة، أن نكتفي بالبحث عن الراحة.. وفقط عن الراحة.
- نغرق في السطحية؛ كي نعود لنطفو في العمق.
- سبحان مقلب الليل والنهار، مقلب أحوالنا معهما. نمسي في ضنك، ونصبح في انشراح.. ونظل في عافية، ونبيت في ألم.. اللهم فقلبنا في طاعتك والرضا بأقدارك ما قلبت الليل والنهار.. وما تقلبت قلوبنا بين ثنايا المجبولة على الأكدار.

- وكنا في مرحلة ما قبل التمحيص نسمع إلحاح العلماء والشيوخ وتأكيدهم على وجوب تفقد النية و إصلاحها ، فلا عمل صالح مقبول من غير شرطي الاتباع والنية ، لكن الظاهر أن أمر النية الآن و التأكيد على سلامتها في مبعد عن العمل الصالح في حد ذاته أصبح كمن يقتني "الكاتالوج" قبل شراء الجهاز..
- ونحيا بلا حياة إذا ما غابت عنا الأحلام.. ونموت بلا موت إذا زادت عن حدها.
- وفي رحلتك للبحث عن الحقيقة، قد لا تعلم الحقيقة كلها، وقد تعلم أكثر مما كنت تودُّ معرفته.
- قد لا يكون السؤال لغمًا.. لكن قد يكون الرد مراوغة.
- ترجيح بسيط بين فطرتك وأمنياتك، فترجح كفة الفطرة.. للأحلام بحر التناسي وللأمنيات العنيدة سلام، وأكف تلوح بالوداع.. تنثر وريقات ما عادت تنفع معها السقيا، تنفضها تترى، وتقبع بين صخور الواقع.. تزرع بين نتوءاتها عشبًا وحبًّا للزغابى، الذين لا يملكون قرار أن يطيروا.
- الشك يقتل اليقين، وينسف بقايا مخزون جميل في الذاكرة، وحتى ذاك الذي لم يدخل بعدُ حيز الذكريات.

- أن تسقط.. وأنت تعلم أنك ستسقط، أفضل من أن تسقط على حين غفلة.. في الثانية ستحاول أن تجلد نفسك، ولربما لن تقبل منها المبررات التي أقلّها أنك لم تكن تعلم، أما في الأولى، ففرصة لأن تتلذذ بالحماقات، تلك التي منعك منها بدايةً جلد الذات.
- أكثر الأشياء التي نفقدها، تلك التي نستنزف أنفسنا عادة في الحفاظ عليها.
- حينما نتحدث عن الفرح بالنعمة، وعن الإحساس بالفخر بسببها، فإنما هو حديث عنها من جهة إحساسنا بها لا من جهة نسبها لأنفسنا، وهذا لا ينفي أن نكون مؤمنين إيمانًا صادقًا عميقًا بأن المنعم هو الله سبحانه.. فهذا الإيمان إنما محلّه قبل كل شيء القلبُ، ولا أظن أنني إن أنا قلت على سبيل المثال: (اشتريت سيارة) أو (حصلت على درجة عالية في الدراسة) أو غيرها من النعم أنني بذلك أنفي فضلَ الله علي.. صحيح أن ذكر فضل الله في سياق الكلام تعطيرٌ للسان، وحمدٌ وشكرٌ لله على جوده وكرمه، لكن إذا ما ذكرت النعمة بلساني ووقرَ في قلبي أن المنعمَ اللهُ وحده، لا منّة لأحد على دونه، فقد وفيت المطلوب مني من حيث الاعتقاد.

- لا أحد يستطيع أن يرغم من حوله على الإحساس بالمسئولية.. فإما أنه يفهم معانيها ومعنى السؤال أمام الله عن الأمانة.. وإلا فإن أية محاولة في الإقناع هي مجرد إبحارة ضد التيار، ونفخٌ في قربة مخرومة.

- يطلقون الطيور استجلابًا للحظ، أي حظٍّ!، والبندقيّات تتربص بها؟

- قد نعذر إن حزنًّا لأننا نملك ما لا نريده، فكيف إذا حصلنا على ما نريده حقًّا، لكن شيئًا ما يمنعنا الفرحة به.. ربما إدمان الحرمان، أو لربما لأنه جاء جميلًا يفوق سقف توقعاتنا في الوقت بدل الضائع.. أو لربما هو الخوف من فقدانه اضطرارًا، فنصُرُّ على أن نفقده اختيارًا.

- الكثير من الكدر، روح تائهة في الزحام، لم تتعلم بعد كيف تستأثر بوجودها..

إما أنانية مفرطة.. أثَرَةٌ تخسف بمن حولك فلا ترى غير نفسك الضائعة؛ فتزيد ضياعًا وكدرًا..

وإما إيثار زائد.. ينسيك اسمك بينهم ومن تكون.

- تصحيح السلوك دون تصحيح المفاهيم سيؤدي إلى التعديل، لكنَّ تعديلًا آنيًّا متأثرًا، إما بالحماسة أو بالتشبه بالأخيار، أو بالتنافس في الخير.. وغيرها، لكن المفهوم إن صُحح رسخ،

وصار قناعة، وأدى إلى النهج السليم، وحتى إن أصيب السالك بانتكاسة؛ فإن المفهوم سيبقى مرجعًا، ومنارة هادية له.

- فرق بين العبادة، وبين التلذذ بالعبادة.. بين الصلاة، وبين الخشوع في الصلاة.. بين أن تقرأ القرآن لأجلِ كل حرف بعشر حسنات، وبين أن ترفرف روحك.. وأنت تتشرب معنى جديدًا انقدح في ذهنك وأنت تتدبر.. فرق بين أن تعيش، وبين أن تحيا.
- وهل كلُّ ما ننصح به، نستنصح به؟ قد ننصح؛ لأننا لم نستفد، ونريد أن يستفيد غيرنا.
- جميل أن تستقبلك الرقةُ من رقيق.. أمر جميل لكنه عادي.. والأجمل والأرقى تلك التي تسحرك ممّن لا تفترض فيهم رقّة ولا عذوبة لسان.
- ليس كلُّ ما يبرق نورًا، قد يكون نارًا.
- فرق بين من تأوَّل فأخطأ، واجتهد فلم يصب، وبين من صادفَتْ مخالفتُه هوى في نفسه، وضعفًا في همته، وقلبًا فارغًا.. فتمكنت.. وبين من يُنَظِّر للمعصية: يعقِلْن الذنب ويشرِّعْن الحرام، يبرر لنفسه ولغيره أن يحوم حول الحمى، أو لربما أن يرتع فيه.

- تلك الأشياء التي يتنافس من حولك للحصول عليها، ويبذلون النفس والنفيس؛ كي يمتلكوها وهم يعلمون أنها لن تكون لهم، في حين أنها بين يديك، من غير جهدٍ منك ولا كثير عناء في تحصيلها، ولأنك إما زاهدٌ فيها، أو لا تعلم قيمتها الحقيقية فلا تعلم ما تفعله بها، أو أنه يثقل كاهلك الاحتفاظ بها.. لا تجد غضاضة في أن تفقدها.
- قد أعذرك، إن كان كلامك حمَّالَ وجوه، ومما يمكنه أن يتلبس عليّ في فهمه.. فأعطيك فرصة للإيضاح، وإن شئت للتبرير.. فهل كنت لأعذرك، وأنت قد أكدت لي، بما لا يسع معه شكٌّ ولا ارتياب، ولا التباس؛ أن ظنّي فيك من بعض الظن الذي ليس بإثم؟
- يا للمفارقة.. فاشل.. ويعلم بحنكة الآخرين كيف ينجحون.
- فرق بين الدعم وبين التواطؤ.. وإذا قيل له: اتق الله في أخيك، ولا تكن عونًا للشيطان عليه.. كن للحق، ودرْ معه حيث دار. قال: إنما أنا أدعمه.. " الدعم لا يعني أن تتواطأ معه على باطله، وأن تقيمه عليه، وتشجعه عليه، وتتعصب له.. الدعم كما جاء في معاجم اللغة: "دَعَمَ الشيءَ يَدعَمُه دَعْما: مال فأَقامه. والمَدْعُومُ: الذي يميل فتَدْعَمُهُ ليستقيم." الدعم تطبيق لما جاء في سورة العصر: التواصي بالحق، والتواصي بالصبر، وتحقيق لمبدأ النصرة المشار إليه في

الحديث: (انصرْ أخاك ظالمًا أو مظلومًا. فقال رجلٌ: يا رسولَ الله، أنصره إذا كان مظلومًا، أفرأيتَ إذا كان ظالمًا كيف أنصرُه؟ قالَ: تحجِزُه، أو تمنعُه، من الظلمِ فإنَّ ذلك نصرُه) صحيح البخاري.

- يصر البعض على أن يكون "خبيثًا"، وما أمرّ إلا أن يكون "مخبتًا"

وشتَّان بينهما..

فالأول رديء خسيس مستعْلٍ عن الحق، متكبرٌ على الخلق، لا يرتاح له بالٌ إلا إذا خاصم وفجر، ولا يبالي بما صنع.. والثاني طيب خاضع متواضع خاشع مطيع منيب مطمئن..

هل يستويان مثلًا؟!.

- نغرق النفس في الرجاء، وكأن للغفران صكوكًا قد امتلكناها.. وننسى أن نعطيها حقها من الخوف من الوقوف بين يدي الملك الديان.. اللهم قلّب قلوبنا بين خوفك والرجاء فيك، وأغثنا من التواكل والغفلة والتسويف.
- نحتمي بالأحلام من ضجة أرواحنا.. ونحتمي بالهروب من ضجة الأحلام.
- نحاول الرحيل أبعد من أعماقنا؛ فيأسرنا الجنون.. لا الحكمة ضفَّرت جدائل السكينة.. ولا النزقُ بعثر أنفاسَنا عبيرًا.

- أسوأ من ادعاء القوة وانتحالها.. أن نكون – فعلا – أقوياء في وقتٍ نحن في أمسِّ الحاجة فيه إلى ضعف مستكين.
- نحن – في الغالب – ننتظرها أن تصفو؛ كي نستطيع الاختيار واتخاذ القرار، والأصل أن الاختيار لم يسَمّ كذلك إلا لأننا أمامه نكون بصدد قياس قدرتنا على المواجهة والتحليل والتصنيف، في ظروف أقل ما يقال عنها إنها مربكة.
- حينما نتردد في المخاطرة بأخذ القرارات خشية أن تكون خاطئة، نحن لا نفعل أكثرَ من أن نحاول إيقاف الزمن على أعتاب اللحظة الراهنة، أو أن ندير ظهورنا للحياة.. أليست الأخطاء طريقةً للمضي في دروبها، ولشق متاهاتها؟
- لا شيء، غير أنه ليس لك من الحكمة سوى الادعاء، في حين يفرض عليك الواقع سطوته.. لست تتطلع للمستقبل، تتركه لحينه كي لا تنشغل عن حاضرك به.. وقد أغمضت عينيك عن الماضي أيضاً؛ كي لا يلهيك عن لحظتك الراهنة.. والرجوع لفتح ملفاته الآسنة لا يفعلُ أكثرَ من نَكْءِ جروحك وتذكيرك بخيباتك فيه.. أنت حكيم، قد قنسرتك الحياة، وجعلتك أكثر مهارة وأكثر حنكة في تحديد زاوية رؤيتك، والانشغال بما في يديك عما مضى أو عما يرجى أن يكون.. حكيم رصين بالقدر الذي يجعلك تتوحد واللحظات الآنية

كي تُقيمَا سرادقات عزاء على واقعك وحاضرك، الذي ليس لك منه شيء.. تبكي بحرقة، وتَلْتاعُ بكل ما فيك من لوعة، وتمضي الساعات والأيام لا تفعل أكثر من الانهماك في الحسرة والأسى أنَّ حاضرك امتدادٌ لماضيك المفرغ من النشوة ومن الفرح، وأن مستقبلك لن يكون أفضل حالًا.

- وكم من أولئك الذين ماتوا، وخلَّد التاريخ ذكراهم، وبقيت أسماؤهم حيَّة عبر القرون.. لكن من منهم ارتبط ذكره بالدعاء بالرحمات، والمثوبة، والمغفرة؟ من منهم كلما ذكرنا اسمه ترضينا عليه، وأثنينا عليه.. بقدر ما عرّفنا بربنا، وذكَّرنا بسنة نبينا؟ ذلك هو الخلود الحقيقي، وذلك هو الذكر، ولسان الصدق في العالمين.
- وإلى متى سنظل أمة تعرف أن قيمتها ورُقيها وفرحها وفرجها في كتاب ربها، وتظل هاجرة له لا يجاوز حرفه التراقي، ولا يعدو أن يكون الاهتمامُ به اهتمامًا بمخارج الحروف، وتجويد القراءة دون اهتمام بمخارج الكروب، وتجويد تفعيله في الحياة اليومية؟
- قلوبهم المرهفة الصغيرة لا تملك إلا أن تذرفَ دموعَ صدقٍ تُبكي من حولهم.. حينما يحبون، يحبون بصدق.. ويتألمون إذ لا يستطيعون كُرهَ من يسيء إليهم.. صدقهم يرهق قلوبنا، وبراءتهم

تتعب أرواحنا، إذ لا نستطيع أن نحميهم من صدق إحساسهم، ومن ألمهم لفراق أو لتغيير نمط حياة.. أطفالنا.

- نحاول حماية أطفالنا من الغلظة والجفاء والعدوانية، وننسى أن نحميهم من الرقة والمشاعر والعاطفة الجياشة.

- مفارقة..

أن تغرق في السطحية.. ثم تضطر لأن تطفو كي تعانق العمق.

- لا أحب كلمة "ضريبة" عند الحديث عن هدفٍ سامٍ، كما إعلاء كلمة الله ونصر دينه.. أحب كلمة "مهر".. فالضريبة تعطَى والنفس صاغرة، أما المهر فبنفس طائعةٍ تائقة لما عند الله.

- وفرق بين استعجالهم واستعجالنا.. هم كانوا يريدون نصرة مستعجلة بدعاء النبي - صلى الله عليه - ربه.. فزجرهم - وهُمْ من هُم في المحبة والاتباع - ووصفهم بالاستعجال.. ونحن نريد نصرة.. ولمّا نحكم شرع الله في أنفسنا!، ولا حققنا العبودية والمحبة والاتباع. اللهم نصرك، برحمتك وجودك وكرمك، وبعزتك وقهرك وجبروتك.. وما أنت أهلٌ له، لا ما نحن أهل له.

- وبين "التحرر" و "التفلت".. وبين "التفتح" و" الميوعة" شعرة.

- فرق بين الصبر وانتظار الفرج، وبين الخنوع والبطالة والسلبية.. وكثيراً ما يكون الخلط بينها.. يقعد المرء عاطلاً بطّالًا وهو يمني نفسه بأجر الصابرين المحتسبين المنتظرين فرج المولى. أتعلم ما الصبر؟ الصبر "حبسٌ للنفس عن الجزع" من أقدار الله، وإرغام لها على التطواف بين جنبات الأمل، وتفعيل فيها لمعاني قوله تعالى ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾، ورياضة على عبادة الانتظار.. انتظار الفرج.. ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[النحل: 127] (ومن يتَصَبَّر يُصَبِّره الله) البخاري. وانتظار الفرج من الله حرثٌ وبِذَار، وانتظار للزرع من مُخرج الشطء سبحانه. الصبر وانتظار الفرج عقيدة، والعقيدة توصيفها أنها : "إبرام عقد من أجل التفاعل مع المعتقد فيه".. حركة دءوب بالقلب وبالجوارح.. بالاعتقاد القلبي الذي يعززه، ويدل عليه العمل.. لا مكان للفراغ في ديننا ولا للدروشة، و للاعتزال عن الحياة وعن مجريات الأحداث.

- تَسحب أوراقُك المشارِكة في حثّ الرمق على مواصلة الحياة.. ورقة ورقة، تمزعها.. إلى أن تفاجأ بأن آخر ورقة رابحة لا تعدو أن تكون وهمًا.. فتمزقك عوضَ أن تمزقها.

- أكثر الناس تورطًا في الأوجاع.. ليس من يدفنون الحاضر في رمال ماضٍ جميل قد ولى لا يفتئون يذكرونه.. بل أولئك الَذين لا ماضي جميل لهم.. والحاضر امتداد.
- ليست العقيدة مجرد معلومات يختزنها الدماغ، وتلهج بها الألسن، وليست مجرد متون نحفظها وقواعد نتعلمها؛ بل هي حركة قلبية، وتفاعل مع الله جل علاه.. أساسه الحب والتعظيم، وفهم دقيق للمعاني المطلوبة للعبادة.. كم من مفاهيم نتلقنها ونستظهرها عن ظهر قلب كلما طُلب منا تعريفها، لكننا عند التطبيق لا نفهم المطلّوبَ منا.. كم نحتاج إلى تفعيل ما نتعلم، وإلى كسر ذلك الحاجز بين النظري وبين ما يجب تطبيقه.

تلويحة وداع..

لـو بــتُّ أنــثــرُ فــوْحَ الحـــرفِ زنبقةً
فــبــات يَــثْــمَــلُ طــولَ الــلــيــل مــوّالي
أو رحـــتُ أكْـحَـل حين الفجرِ أمنيتي
مـــا كـــان يــســكــنُ في جَــنْــبَــيّ تِــرحــالي
لكنني ورُضــــابَ العيش في جَـــدَلٍ
فـــصــرتُ يــعــبــس في جَــفْــنَــيَّ تمــثــالي

- جلبتك التي أفزعت الطيور الهاجعة فوق السنديانة، وجعجعتك التي أدمنت طرد الفراشات وانتزاع الرحيق من خدود الورد المنتظر هطول الفجر؛ ما عادت تنفضهم، ولاصارت تزعجهم.. فانسحب الآن في صمت، ومَزّق مناديل الوداع وكسر الأصابع الملوحة.. فليس الوداع كلمة تقال ولا دمعة تذرف.. الوداع روح تأبى أن تحلق هادئة هانئة فوق السوسنة وبالقرب من شتلات غرس أردت يومًا أن ترعاه فخانتك السقيا، وغاب عنك المطر.. حلّق الآن.. صامتًا هادئًا.. ولا تتكلف التفاتةً لن تكسر الجُدُر السميكة

التي اكتسحت مدينة الرماد القابعة خلفك.. ولن تجعل المطر ينبت سلالم لاقتحام المستحيل.. ولن تجعل - أبدًا - الفاتحين يقتحمون ذات الأسوار يخلصون الورد من السجون. امض.. بقطعٍ من الليل أو مع إشراقة الفجر.. ولا تلتفت.

- بعض القرارات قد تحتاج منَّا طرفة عين كي نتخذها، وأخرى ساعات أو أيامًا.. وبعضها قد تأخذ منّا عمرًا كي نعلم في الأخير أننا قد تأخرنا كثيرًا في اتخاذها.. ولولا إيماننا بالقضاء والقدر؛ لعشنا ما تبقى من عمرنا في حسرة وندامة على أننا لم نسارع.. ولولا أننا نؤمن بحكمة الله لما علمنا أن ما بين دراسة القرار واتخاذه أخيرًا.. حياة قد عشناها بمرها وحلوها ودروسها وعبرها.. فاللهم يا حكيم، ألهمنا الحكمة.. ويا رزاق، ارزقنا التؤدة.. ويا عليم، علمنا ما لم نعلم.

- لا أسميها حياة تلك التي تستقي كُنْهها من الصمت ونُضُوبِ المشاعر.. أسميها طلاقًا روحيًّا، أسميها حياة الزيف.. أسميها الموت البطيء.

- شمس الخريف تصر على أن تشرق أكثر وهجًا، وأن تلفح الوجوه.. وأن يحرق لهيبُها الجفونَ يتسرب للشريان.. هكذا هي الكثير من الأشياء حينما تقرر الرحيل.. تصيبها نوبةُ اشتعال، ثم تغرق في تفاصيل الأفول.

- ما أقبره القلب.. فلا بعث له ولا نشور.. وما أسقطته العيون؛ فهل من جبر للكسور؟ فيا سعد من وأد الفؤاد.. ومارس العمى ونسف ما يوغر الصدور.
- بعض النهايات - أحيانًا - ليست مؤسفة إلا بقدر ما أن اسمها "نهاية"، ولربما صنائع المعروف هي التي جعلت منها نهاية: مزيد لطف وعناية من اللطيف الخبير.. ما أدراك ما كان سيحمله لك الاستمرار؟
- أكثر ما نفقده، تلك الأشياء التي نخالها لا تغيب ونطمئن إلى أنها يستحيل أن تغادرنا، فلا نحرص على عدم فقدها.. لنستفيق على طيفها، وصرير حقائبها، وأياديها الملوحة بالوداع.
- تلك الأشياء التي نصرُّ على أن نقاتل لأجلها، لا ندري متى نتنازل عنها بكل قناعة غير نادمين على تغيير المسار.
- الآن فقط.. علمت لمَ يلوحون بالمناديل عند الوداع.. كي يمسحوا بها بعدها مآقيهم، ويمنعوا طيف الراحلين المستوطن بين الأحداق.. أن يتسرب مع هطل الدموع.
- ربما لأننا لا نهاجر أبعد منا.. نظل محاصرين بالحضور مكبَّلين بالغياب.

- الأرض الحُبلى بالرحيل تشق أكفان الحنين.. تمزقها.. تبعثرها.. تنثرها في عيون المساء.. فيذرف نجمًا وسرًّا ونبضةَ مطر.
- كثير من أولئك الذين اعتنقوا فلسفة فرح البدايات وجمالها؛ همْ نَفسهم من تبعثر حطامهم فوق جسر النهاية.
- قد تسرف في إنشاء ملاحم الوداع.. وتبالغ في خرز قصائد الرحيل، حتى إذا ما أزف على الحقيقة، ابتلعك الصمت، وشرّد كلماتك عويلُ السكون، ففردت جناحيك لا تبغي بالأرض مقامًا، مكانك بين جفون النجم.. تدثرك رموشه، تخشى عليك من النسيم.
- اللهم لا لي ولا عليّ..

ماذا كنت ستختار لو خُيرت يومًا بين أن تعيش بكرامة وعزة نفس، لكن مع تضييع الحقوق؛ وبين أن يضيع حقك وتمرغ أنفتك بأوحال التجبر والجفاء.. إن أردت الإنصاف وتأدية الواجبات؟

اضطررت يومًا إلى أخذ القرار.. فاخترت الانسحاب في صمت، لسان حالي ومقالي: اللهم لا لي ولا عليّ.

- والسفينة إن تحطمت على مرافئ الوصول، أفنسأل البحرَ لمَ ابتلعها!؟
- "بعض الغياب يعلمك الانكسار، وبعضه يعلمك القسوة"

وبعضه يعلمك كيف تكون أنت.

- عاشت حياة البؤس هاوية، وحملت حقائب الرحيل باحتراف.
- بعض الخيبات لا تعالج إلا بالغياب.
- الطير الذي اعتاد على الرحيل، يخشى أن ينظر إلى الأرض تحته؛ فيسقط اللقط من منقاره.
- وليس الحنين لمن على الأرض ساروا، ولكن الحنين لمن خانوا العهد، وسبقونا للتراب.. أحياء بيننا، وجودهم كما العدم.. علمونا ألا نحِنّ وألا نشتاق.. وأن ننتظر في صمت، انتهاء فصول الرواية.. وأموات يشاركوننا حركاتنا وسكناتنا وتضخ ذكراهم في قلوبنا معاني الشوق والحنين.
- ما نفقده أحيانًا يكون معنى الفقدِ فيه أقربَ إلى الربح منه إلى الخسارة.
- أصعب الرحيل، ذلك الذي يتلبس فيه الاختيار بالاضطرار.. والنسيان بالذاكرة الموشومة بالوجع.
- الرحيل الذي يستقي كنهه من الصمت موت بطيء.. وحتى الأموات لا يرحلون حتى يكتبوا وصيتهم.
- قد نخرم السفينة ونعيبها.. من أجل هدف أسمى وأهم.. الحياة سلسلة اختيارات لا تنتهي؛ فلنختر الأسمى والأهم.

- أجمل الرحيل وأصدقه، ذلك الذي تلملم فيه – في صمت – شظايا روحك المتناثرة، وتستجمع فيه كل قواك كي تحمل في ثقة كلَّ حقائبك المملوءة بأشيائك الصغيرة الجميلة، وترحل من غير دمع تذرفه على أطلال أَبَتْ إلا أن تكون مجرد أطلال، وتمضي غير نادمٍ ولا آبهٍ بصوت الارتطام الذي خلفه رحيلك.. وفي أعماقك جبالٌ ثقة بأن شبح الماضي قد انتهى، وبأن الجميل فيما ستستقبله من أيام.
- ما أصعب أن تنتهي في الوقت الذي يكون فيه من حولك بالكاد سيبدأون..

وما أصعب تلك النهايات الحاسمة!، مثلها كمثل من تعسرت ولادتها لتتمخض عن جنين ميت، فارق الحياة تمامًا في الوقت الذي كان يتهيأ لمعانقتها.

- التنازل مرحلة، ولا يمكن بحال أن يكون حياة.
- بعض ما نفقده في الحياة، إنما هو امتداد طبيعي للفقد بمراحله، وتحول تدريجي من حالته الكُنْهية إلى حالته المادية المحسوسة.
- وعام آخر قد حمل حقائب الرحيل، وتوسَّد آجالنا كي يستأنف المسير. فيا أيتها الأيام الراكضة المتصرمة المنفرطة من سمط أعمارنا، كلّ ليل قديم قد طويتِه، وكل فجر جديد

قد نشرتِه.. إنما هو خطوك الحثيث بنا لإدراك لحظات الفرج، وركضك لنفخ الفرح في أرواحنا المتشوفة لمعانقة الأحلام.

- سنبكيهم.. لسنا نملك سوى أن نبكيهم بالدمع، وببقايا النبض، وبفصد الشريان.. سيئز الفقد بين ضلوعنا، فنتابع في صمتٍ الطلَّ المنهمر على وجناتنا المستعرة شوقًا وحنينًا لطيفهم المغادر، يعبر إلى هناك دوننا حيث نهاية رحلتهم، فتنبت في الأحداق حروفٌ قد غصت باليتم بعدهم، وبالغربة وسط الجموع.. وسنظل نبكيهم.. لا نستطيع سوى أن نبكيهم.
- لا تلم الغمام إذا ما أبى أن يفشي لك أسرار الزنابق العنيدة.. ودّعه في صمت، واحتفظ لنفسك ببقايا الكلام وعبارات السلام.. وتوثب لتطرز مناديل الوداع.. فتش بين رموشك وخلف ضلوعك وفي أساطير بطولاتك وفي أبيات قصيدك وبين سطور الروايات.. سينزُّ لك - حتمًا - رشحها، وسترخي سدول جفنيك تداعب بسمة النشوة، وتحجب لمعة التوقد، تلك التي تتمخض الليالي الطوال؛ لتكشف سرًّا، وتنجب حلا.. وتشرق بقناديل قرار.

وشايات المرايا..

(الحقيقة.. الحياة..النفس البشرية..)

- أحترم في الحياة غموضها وتلونها، وعملها الصامت المُتْقن فينا.. أحترم فيها ساقية ورمال جفاف.. ووردة وحصائد شوك.. وخيط نور وجحافل ظلام.. ولذة ونكبات.. وبسمة ودمعات.. أحترم فيها كل مفارقاتها وكل مهاتراتها، وكل ما أعطت، وكل ما منعت.. لأنها ببساطة دنيا؛ ولأنني – وهذي حقيقتي – مجرد عابرة حياة.
- لم يكن كذبًا ولا وهمًا.. إنما هي الحياة تضطرك إلى تغيير رؤاك.
- بعض المفاهيم في الحياة، لا تحوجك إلى أن تكون أديبًا، ولا ذا لغة زجلة، أو صاحب عبارات رشيقة، وصور بيانية أخَّاذة كي تتحدث عنها، إنما هو حسك وإحساسك الذي يمليها عليك، فتتدفق أنيقة رقراقة منسابة، غير متكلفة ولا مصطنعة؛ لتخترق آذان المتلقي، وتستقر في وجدانه.
- زهدك في الحياة اختيارك، فلا تَدْعُني ولا ترغمني على الزهد فيها والتخلي عنها؛ فليس ذلك اختياري، إنما علمني كيف أعيش

فيها إنسانًا.. علمني كيف لا أركض فيها ركض الوحوش.. علمني كيف يسلم فيها قلبي من الهلع ومن الحقد والضغائن.. علمني كيف أحب نفسي وكيف أنثر ورود محبتي على من حولي.. علمني كيف أسير فيها سير الخائفين.. ذكّرني بربي، واتركني أسبح في جمال وكمال صفاته، وعرفني بنبيي، ودعني أرتوي من معين نهجه وأخلاقه..علمني الحب في أسمى وأرقى معانيه، فيشتاق قلبي المرهف الرقيق إلى ربه.. وإلى خزائن جود ربه.. وإلى سلعته الغالية التي أعدها لعباده المخبتين.. وسأعلم حينها أنما البُلغة تبغي قصر الأمل وتشمير السالكين، وإدلاجًا؛ خوفًا من قطاع الطريق، فأحثُّ الخطى وأرغب عنها زهدًا وطواعية كما فعلت أنت جبلة أو عادة.

- علمتني الحياة أن أفاضل بين ما سأفقده وبين القيمة المضافة التي سأحصل عليها إن أنا فقدته.. وأن أعمل بين كل ذاك على ألا أفقد نفسي.
- ذاكرة الألم لا تشفى.. ربما تُتجاوز.. لكن سرعان ما تطفو على السطح كل تلك الأشياء التي خِلنا - يومًا - أننا دفنَّاها إلى غير رجعة، فإذا بها تنبعث من مرقدها من غير سابق موعد.. الإحساس بها في البداية اضطرار، فنحن لا نملك مشاعرنا، ولا نعلم متى تستيقظ الآلام، لكن الاسترسال

معها أو تجاوزها قرار؛ كي نسهل أو نعطل على الشيطان مهمة إحزان الذين آمنوا.

- نسيانُ الألم قرارٌ، لكنه غير مختوم.. كما تلك الوثائق غير المعترف بها رسميًّا؛ إذ فقدت توقيع المسؤولين.
- أتعلم ما الذي يُلهب مجمر غيرتهم، ويوري زندَ حنقهم عليك؟ تلك الأشياء الصغيرة الجميلة التي تمتلكها أنت.. ولا تستطيع أموالُهم أن تقتنيها.
- من أكبر مكدرات الحياة: الملل. ولعل النفس التوَّاقة والروح الطموحة أكثر ما يتعرض لهذا الكدر باعتبار بحثها اللامتناهي عن الكمال.. ولعل مما يعينها على طرده والتغلب عليه:
  - تنويع العبادات.
  - تجديد الحب في العلاقات البشرية.
  - تنويع الأشغال والاهتمامات.
  - الابتعاد، مرحليًّا، عن بعض العادات من أجل العودة إليها بشوق ولهفة.
- الحياة اختيار.. إما أن نعيش، أو أن ننتظر كي نعيش.
- التنازل مرحلة.. ولا يمكن بحال أن يكون حياة.

- في الحياة، ليس هناك - دائما - غالبٌ ومغلوب.. فكلٌّ يرى الغلبة من وراء نظارتيه، وكل حسب معايير الغلبة التي يرتضيها لنفسه.
- من مفارقات الحياة أنها لا تعترف بجدلية الأسباب والنتائج، فكم مرة وثقنا بالنهايات المفترضة لأسباب علمناها، ووثقنا من حصولها، فجاءت الموانع، وجاءت الخواتيم بما لم نتوقَّعه.
- مرات أتساءل: أفي الحياة خسارة محضة أو ربح محض؟ فلا أجد جوابًا سوى أنها الدنيا الخديج، لم تَصْفُ حتى لسيد الخلق! فكيف نريدها أن تصفو لنا.. في دروب البؤس نعيش الحياة بكل تفاصيلها الصغيرة، وفي رحلة الشقاء قد نلتقي - صدفة - بأنفسنا.. فإن كان، فلنحرص ألّا نتوه مرة أخرى وألا نضيِّعها في زحام الطرقات.
- نِصابُ قلوبنا من الحياة: ألَمٌ يذكّرنا بالله، ويجعل قلوبنا المتعبة الكليلة تتكوم دعوةً صادقة في جوف الليل وأطراف النهار، يقربنا من المولى، ويجعل ألسنتنا تلهج بما يحيي القلوب، ويجعلنا نستشعر بعمق معاني السعادة والفرح والصحة والعافية.. وحب ورحمة يصقلنا، ويذكرنا بإنسانيتنا، وبتلك المضغة التي ما خُلقت بين جوانحنا هباءً، وهي هباءٌ إن حُرمت معاني الحب والوفاء.. وما تبقَّى، لا يعدو أن يكون

هشيمًا، إنما وجوده كما وجود أوراق الشجر بها، لا قيمة لها إن غاب الثمر، أو هبّت عليها رياح الخريف.

- تئد فضولك في البحث عن حل للغز لا يحيرك ولا يعجزك سبره، لكن ينشيك أن تؤخر حله مادام جماله في خفائه وغموضه.. حتى إذا ما قررت يومًا خوضَ المغامرة، وصار مكشوفًا أمامك؛ فقدت نشوة الانتظار ونشوة البحث عن الانتصار.
- ويحدث، أن تبحث عن دليل لوجودك، ذاك الوجود الذي يحقق وجودك.
- نعلم فعلًا بأننا نضجنا، حينما تتساوى أمامَنا الكثيرُ من المتناقضات.. حينما نستغني عن أشياء كنا نراها من قبل ضرورية بل جوهرًا في اختياراتنا.. قناعة وزهدًا.. بل عيفًا للحياة.
- أحيانًا، نحن نعلم الإجابة مسبقًا، لكننا نريدها أسئلة قائمة، وبدون جواب كي نقنع أنفسنا أن هناك مجهولًا لسنا واثقين من صحته، وبأن ما يدور بخلدنا مجرد أحاسيس هي أقرب ما تكون إلى الوهم منه إلى الحقيقة.. وكلما اقتربنا من الحقيقة أو اقتربت منا، اختبأنا وراء أسئلة حائرة مزيفة.. نحجب الشمس بالغربال، ونمارس العمى كي لا نتأكد.

- قد نلجأ إلى محاولات في التغيير؛ تنكيلًا بالسأم والرتابة التي تطال حياتنا.. قد نعمد إلى تغيير شكل ملابسنا أو الألوان التي اعتدنا عليها.. نتوسم خيرًا في تغيير أثاث البيت، أو تحويل وجهة المكتب، أو في نظام أكلنا، أو حتى في صور "البروفيل" على صفحاتنا بمواقع التواصل.. بل قد نتعمد - أيضًا - تغيير الوجوه التي تحيط بنا والاستعاضة عنها بغيرها.. وقد يعلو سقف متطلباتنا، وتتطلع العين إلى ما هو أكثر، فنسارع إلى البحث عن خلاص من بيئتنا كلها فنفتش عن مرافئ خارج حدود الوطن، علَّ تغيير الأماكن يغير ما أَسِنَ بالروح.. نبحث جاهدين عن تلك الحركة التي منها سيكون القضاء على موجة الكآبة والسأم التي تغرقنا.. وننسى أن ما يجب علينا أن نغيره بحق؛ تلك الأشياء التي تقيد أرواحنا وتسجن نفوسنا.. وتلك الجبال التي توحلنا في طينها فتتشكل المعصية والذنب مرضًا يسكن تفاصيل أجسادنا، وتقصيرًا يلوّن حياتنا بالكآبة والأوجاع والضجر.
- أحيانًا كثيرة، نحن نعلم - يقينًا - أننا على خطأ.. ندرك ذلك ونعيه، ونوقن أنه علينا أن نتغير، وأن ننصرف عن العبث، وأن نعتنق الرقي.. لكننا نستمرئه فقط لأن البحث عن تصحيحه سيكبدنا خسارة تغيير مسار، ونستعظم أن نبذل الجهد؛ لأننا

ربما نكسل عنه، أو نخشى أن نخفق، أو لأننا أدمَنَّا حياتنا بالشكل التي هي عليه، فأصبحنا لا نرى أبعد من مدارها.

- لكم أغبط السُذّج والحمقى؛ لأنهم غير مضطرّين لعبور الحقيقة، ولا يعنيهم الغوص في كنه الأشياء.. وحدهم يعيشون في سلام مع أنفسهم ما داموا يرون ألا حكيم غيرهم، وألا عاقل غيرهم.. وما داموا غير مطالبين بنفي أو إثبات؛ فقد عَفَوا غيرهم من ذلك، ونعِموا بالهناء وراحة البال.
- أن تلتهمك نيران الحقيقة أهونُ مليون مرة من أن تلوكك الظنون والشكوك.
- الحق توازن وثبات، وبطَرُه ورفْضُه يجعل الرافض دائم الترنح والاضطراب.. لا ترسو سفينته على برٍّ، أفكاره مائجة، وعقله طائش، ولا يستقر على حال.
- وما الحكمة واعتناق فلسفات الحياة؛ سوى جرعات ألم.. وما البصيرة وما اليقين وما انكشاف أستار الحقيقة؛ سوى لحظةِ وجعٍ معتق، تنقشع فيها حجب أسرار اللطف والرفق والمعية.. (والعافية أوسع لنا).
- لا تعرض بضاعتك على زاهد فيبخسها، ولا على متلهفٍ فيثمنها حينًا بما تستحق، حتى إذا ما انقضت لهفته، تجاوزها للهفة غيرها.

- وفي وسط الزحام لكم نَتُوه، نتخبط، نبحث عنّا فلا نجدنا.. نرى في المرآة فإذا بها فارغة من وجوهنا.. وتتدافع الحروف فوق الشفاه؛ لتكتب سؤالها القاتل: " من أنا؟ من أكون؟" هي سجدة بين يدي الكريم، تنبئك أنْ ما أنت سوى دعوة صادقة أن يكفيك الله شر ما تجد.. عبد فقير يرجو كرم مولاه.. يسأله أن يحميه من نفسه المتمنعة عليه، وأن يرجع الخطى إلى حيث الخط الواحد المستقيم.
- حيّ ذلك النبض الذي مازال يهمس لك من بين جدران صدرك: "من أنت؟".
- استغرابك من مواقف النذالة، واندهاشك من وجود ذئاب متدثرة بزي إنسان؛ دلالة على إنسانيتك وعلى سمو أخلاقك، وعلى تلك البذرة النقية في أعماقك، وعلى أن ميزانك في الحكم عليهم طيبتك ورقِيّك.. فلتسعد بالإنسان المتربع في أعماقك.
- النفس التوّاقة والروح المتمردة بقدر ما هي سجنٌ لصاحبها، بقدر ما هي من يؤزه على التحرر.
- سجين روحه.. يهوى تعذيبها.. لا فكاك له منها.. ولا فكاك لها من ذاك العذاب.
- سجين الروح.. مبتور الجناح.

- الأرواح الشفيفة.. فكرة قد تسجنها وتستعبدها.. وفكرة قد تحررها.
- أهم شيء بعد الحرية أن تعلم ما تصنع بها.. والأهم.. ألا تبقى رهينًا لإدمان السجن.
- حصيات كلماتهم التي تنحت في نفسك لك تمثالًا، سرعان ما تنسفها جلسة شفيفة إليك.
- النفس البشرية تميل إلى المحجوب عنها، وتتعلق بالممنوع وبالمسلوب منها..

تتعلق لأنها لا تعلم.. وتتشوَّف لأنها تأبى الحرمان..

لكن وحده من عرف وتجرع المرارة من يتمنى أنه لم يعرف يومًا.

- إن رأيت ذلك الجمال الكامن فيك قد أصبح يتغير إلى قبح، أو أنه لا يظهر بالصورة التي تليق به؛ فاتَّهم ما ومن حولك.. الكثيرُ من جمال أرواحنا، إن هو سوى انعكاسٍ للجمال حولنا.
- لا شيء..

غير أن في الأعماق سرًّا أشعث أغبرَ ملثمًا، يأبى إلا التخفي.. كلما اقتربت من فك شفرته التف حول نفسه، ونثر تفاصيله في نتوءات الروح.

- النفس البشرية تميل إلى المحجوب عنها، وتتعلق بالممنوع وبالمسلوب منها، فمريض السكر قد لا يكون محبًّا للسكر وللحلويات ابتداء، ثم إن هو سمع من الطبيب منعَه شرب الشاي المحلَّى أو قضم الحلويات؛ تـمسكت نفسه - بقوةٍ - بما مُنع منه، وقد يحس بالظلم والحيف والمسكنة فقط لأنه ممنوع من تناول هذه الأطعمة.. ونفس الشيء لمريض الملح، ولمتتبع لحمية، ولكل ممنوع من مرغوب أو غير قادر على تحصيله لشواغل أو لموانع.
- لَقصاصة تنزع عنك دغل قلبك وكسور نفسك وتواجهك مع وجهك في المرآة وتنزع عنك أقنعتك وتقيم خطوك المبعثر المشتت الواقف على حافة الهاوية؛ خيرٌ لك من أساطيل كتب تزين بها مكتبك وما تزين بها قلبك ولا روحك ولا نفسك السقيمة.
- كثيرًا ما يتولد التقصير والجرأة على محارم الله؛ من تلك الفجوة بين حضور القلب مشهد النعمة والإحسان.. وبين شكرها بالطاعة.
- ويا للرضا.. كم يرتب فوضى الأعماق.
- قد تقلع عن الجعجعة.. كي تنجب طحيناً.
- ذاك الصخب داخلك.. يحجب عنك هفهفة الروح.

- الإحساس بالاكتظاظ يعلمنا أن نرتب كل شيء حولنا.. الفوضى تلد - أحيانًا كثيرة - دقة ونظامًا.. وتعلمنا الحرية في أدق تفاصيلها.
- ولا نهنأ ولا يرتاح لنا بال - أحيانًا كثيرة - حتى نبالغ في إيلام أنفسنا، وفي القسوة على من حولنا.. وكأن القسوة أصبحت أكبر دلالة على أننا على قيد الحياة.
- المتعمق العميق إذا ما اضطر - يومًا - إلى أن يعيش السطحية فإنه لن ينعم.. سيستفيق بين الفينة والأخرى مفتقدًا عمقَه فتقض مضجعَه استفاقتُه.
- أجمل ما في الصدق والشفافية مع النفس، أن تنزلها منزلتها، وألا تعطيها أكثر مما تستحق.
- ذاك الحريق في دهاليز الشريان، قد فاح منه شواء الأحلام.
- احذري يا نفس من أن تدليهم عليك.. وأنت تظنين أنك تدلينهم على دين الله.
- إنما نفوسنا كالفرس الجموح.. تحتاج للحلواء؛ شكرًا وتحفيزًا، وللجام؛ يمنعها الكرَّ والفر في غير محله.
- ولأن ذاكرة الليل لا تحتفظ بعبق الربيع.. كتب النجم "نيسان" "نسيانًا"..

- وإلى جانب الجد والتفوق والذكاء والفطنة والنباهة واللمح، وتوقد الذهن في طلب العلم؛ تبقى شخصية الطالب وثقافته، واتساع أفق رؤاه وميولاته وتوازنه النفسي؛ عاملًا أساسيًّا في الفهم والتعامل مع جزئيات الدين.
- حالنا مع أنفسنا ومع أحلامنا المعطلة في الكثير من الأحيان.. حال العرب مع الأندلس، ما ذُكرت إلا وكان منهم عليها الأسى.. أو حال أمّ الأيتام وقِدرها المشهور، قد ملأته حجرًا تُصبِّر أبناءها على عضّة الجوع، حتى إذا ما طال انتظارهم ناموا.. نراوغها ونهاودها ونستكثر، فتتعلم منا المجاراة وتتقن أن تهادننا.. لكن نخستها ما تنفك ترْجُنا كي نستفيق.. حتى إذا ما استفقنا، ما كان لنا من بدٍ سوى أن نعيد الكَرة.. وأن نملأ قدورنا بأحجار الأماني.
- مرات، نتمنى لو كنا أقل اطلاعًا على أعماقنا، وأقل فطنة ونباهة لما يجري حولنا، وأقل إحساسًا وشاعرية، وأقل تعاطفًا مع من نحب كي لا نتعذب لأجلهم.. فأصعب الآلام تلك التي لا تكون أنت جزءًا منها، ولا هي جزءٌ منك، إلا بقدر ما تُقحمك فيها مودتك لغيرك، وشعورك المخملي بمعاناتهم.. من يتألم بسبب مشكلة تخصه، لديه كل الحيل الدفاعية كي يتجاوز الألم، فوحده يعلم الحقائق

والمخبوءات، وكلَّ تفاصيل الحكاية، أما أنت أيها المصلوب على حافة ألم أحبابك، فما يجديك غير أن تتألم لأجلهم بصدق، وأن تسكب لأجلهم العبرات الحرَّى الصادقة، وأن تهجر الراحة والنوم، وتمضي وقتك تنتظر أن يكفُّوا عن الألم كي يبرحك أنت.

- وأغلب ما نؤتى منه في تقصيرنا: قسوة القلب.
- فوضى، أن يكون خصامك دائمًا مع ذاتك: لا تفهمها، ولا تعلم منها ما تريد، ولا تمنح نفسك فرصة الاطلاع على خباياها ونقائصها.. وقمة الإرهاق، أن تكون شفافًا، قريبًا جدًّا منها، دائم التطلع عليها والتنقيب في هفواتها، لا تفلت شيئًا من تقلباتها، ولا تفتأ تجلدها على الصغيرة والكبيرة، حتى لتكاد روحُك تتفلت منك من كثرة الضغط والتأنيب والمحاصرة.
- أحيانًا يكون الدفاع عن شيء ليس بدافع المبدأ، أو لاستحقاق ذاك الشيء الدفاع عنه في حد ذاته؛ وإنما يكون ذلك إما دفاعًا عن حقنا فيه، أو لأنه يوافق هوانا، أو لأن عدم الدفاع عنه يهدد مصالحنا ويكشفنا على حقيقتنا.
- لكم تنزلق منّا تلك المضغة القابعة بين الحنايا وتتفلت في زحام الحياة، وكم نؤتى من قبلها ولا نرعوي.. بل قد لا نتنبه إلا ونحن في دركات الهم والغم والمشاكل.. نتساءل

في حنق: ما الذي أودعنا شباك الهم الثقيل؟ وما بال هذه الحياة أصبحت ذابلة ممتقعة؟ ومالنا لم نعد نستمتع بكل ما كنا نستمتع به من قبل؟ نحاول البحث عن الحلول والبدائل، وحل شفرة الروح، وننسى أننا متقلبون بسببه بين غضب وشهوة، إن أفلتنا زمامه كبلتنا.. وصرنا لها عبيدًا.

- وحدهم أولئك المطَّلعون على عوالم الأعماق، الشفافون مع أنفسهم ابتداءً، المدركون لمعنى الضعف في النفس البشرية، من يفهمون نوايانا وإن أخطأنا، ويتفهمون إنسانيتنا وضعفنا، ويعذرون انزلاقنا غير المقصود.. وأما من يصولون ويجولون لمجرد كبْوةِ غيرهم، فلا ينسوا أن الدور عليهم، ولا ينجيهم من ذلك إلا أن يبيتوا إنسانًا ويضحوا ملائكة.. أو يصيبهم العتَهُ فيرفع عنهم القلم.
- بعض الحقائق نحن من نعمي عنها عيونَنا.. نغرق النفس في الأماني.
- بعض صفاتنا، مفارقات وأضداد تلتقي في الجهة الأخرى من الكرة الأرضية.. مترددون حدّ الحسم في القرارات، عنيدون حدّ الثقة بالنفس، حازمون حد النكوص، صامتون حد الشجب، باردون حد الانفجار، ثائرون حد الصمت، ضعفاء حد التحدي، مستكينون حد الإباء، مثاليون حد

الواقعية، فرحون حد الحزن، حالمون حد الوهم. لك الله يا أيتها النفس المتقلبة المتلونة المترعة في المفارقات، الغارقة في لجج الإنسانية المائجة.

- لكم نحتاج إلى ترتيب تلك الفوضى العارمة في أعماقنا.. وحدها تلجم اللسان وتجعل سمط الكلمات ينفرط.
- ما بين النوم والاستيقاظ لوحات تنطق حكمة أحيانًا، وأخرى تشبه في اضطرابها الهذيان.
- لا أثقل على القلب من الطلاسم والشفرات.
- وهل تمايز المؤمنون إلا بأخلاقهم وقلوبهم!؟ فأما النسك والعبادات، فأمرها بيّن، ويشترك فيها المؤمن والمنافق، بل ويحقر أحدُنا صلاته أمام صلاة أقوام قد فسد تصورهم وخلقهم، لكنهم ظلوا أصحاب عبادة.. هي الأخلاق والقلوب إذًا لا غيرها.. فأما القلوب فسرائر: خبيئات أو دسائس، وهي لنا أو علينا نحن ابتداء وانتهاء.. وأما الأخلاق فهي رسلنا لمن ولّانا الله شأنهم، أو لمن قدر علينا جوارهم، ومغارف قلوبنا، ومرايا أرواحنا.
- وأنت في أوج حماستك.. احذر أن يلتبس عليك انتصارُك لدينك بانتصارك لنفسك.. وإنه لخيط رفيع بينهما.
- تتبع عورات الغير، تعالٍ واستكبارٌ وتنزيه للنفس.

- إذا نظرت لعيوبك وتفحصت مواطن زللك، وكِلْت لنفسك الاتهامات.. انشغلت بنفسك عن غيرك، فاستعظمت خطأك، وهان في عينك زلل غيرك.
- إذا عذلتك فقد أحببتك

وإذا نبهتك فقد سامحتك

وإذا صنفتك فقد ألغيتك.

- لا تكثر علي النصح والتقريع والتذكير بما مضى من زلات وما سلف من عثرات وأنا في محنتي؛ فلن أقبل منك.. ولو كنت أنت على حق، ومعترفًا أنا في قرارة نفسي بصدق وصحة ما تقول؛ إنما واجبك الآن أن تمسح دمعي.. أن تواسيني.. أن تذكرني بربي وبرحمة ربي وبلطف ربي.. وأن تتباحث معي الحلول.. أن تصوب عيني نحو المستقبل.. أن تبسط أمامي بسط الرجاء.. تلك إعانتك لي في محنتي.. وعدا هذا، فما هو سوى شماتة ونكأً لجروحٍ.. أنا في غنى عن نكئها الآن.
- بعض البوح لأقرب الناس إليك ممن تثق بهم؛ فرصتك لكشف نفسك أمام نفسك ابتداءً؛ لتعرف قدراتك وطموحاتك، ومكامن قوتك ونقط ضعفك.. وأحيانًا لتجد الحلول التي كانت خافية عنك قبلا.

- وأول خطوة على طريق الإصلاح، بعد الاستعانة وطلب الغوث من المغيث - سبحانه - بصدق وإلحاح، وبعد الشفافية والقرب من النفس، ومحاولة فك شفرتها: توقير الله، وتعظيم قربه، وعلمه، ورقابته في النفس.. فإن استشعرنا قربه الدائم منا، واطلاعه على الخبايا وما تخفي الصدور، وعلى الكلمة ومرادها، والفعل ومراميه، والنية وتجردها أو تلونها؛ استطعنا - بفضله سبحانه - أن نصلح ما كتب لنا إصلاحه.. قراءة متأنية بتدبر وتمعن في كتب شرح أسماء الله الحسنى؛ لأسمائه سبحانه: (المهيمن، الرقيب، الحفيظ، السميع، البصير، العليم، المحيط، الشهيد) تشفي الصدر العليل، وتذكر الغافل، وترد الشارد بفضل الكريم الجواد. قيل لبعضهم: متى يَهِشُّ الراعي غنمه بعصاه عن مراتع الهلكة؟ فقال: إذا علم أن عليه رقيبًا.
- "شيخ الإسلام حبيب إلينا. والحق أحب إلينا منه. وكل من عدا المعصوم - ﷺ - فمأخوذ من قوله ومتروك، ونحن نحمل كلامه على أحسن محامله، ثم نبين ما فيه. "(ابن القيم - مدارج السالكين). لله درُّها من كلمات من رجلٍ محب، صادق المحبة لشيخه، لكن حبه له لم يعمِ عينه عن اتباع الحق، وحبه للحق ودورانه معه حيث دار، لم يمنعه من أن يراجع

شيخه في أدب واحترام، ولم يجعل من اختلافه معه – حول ما لا يراه حقًّا – فرصته لإسقاطه ونعته بأبشع الأوصاف، بل وطّأ لما سيناقشه فيه بمعاني المحبة، وبرر ما حمله على الاعتراض.. وهو حب الحق، وقدّم بين يدي مناقشته بتبرير خطئه البشري إذ قد انتفت عنه العصمة، وبإقالة عثرته وحملها على أحسن المحامل.. فلله درها من حكمة، ولله درها من أخلاق.. إنما جعلت كتبهم للاقتداء بهم، واقتفاء سمتهم فيها وأخلاقهم وأحوالهم قبل أقوالهم، وإلا فما قيمة وصفنا بـ "متبعين"؟.

- بوصلة روحها لا تهدي إليها العابثين بوريقات زهر البرتقال.
- الوردة التي لا تؤمن بعطرها.. خرقاء.
- ﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٤﴾. وهو يسمع قراءة فواتح سورة العنكبوت؛ توقّف سمعه عند قوله تعالى: ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾، قال منتشيًا، وعيناه تتوقدان دهاءً وفرحًا، وكأنه خرج توًّا من معركة حسمها بنصر مؤكد، أو كمن وقع على كنز وهو يحفر القفار: – وما لي وما للإيمان،

وما عاقبته سوى فتنة؟ أأترك العافية وراحة البال، وأبحث عن الأذى في النفس والمال والولد!؟ إنني إذًا لمغفل.. ويا ليت نفسه الأمارة وفلسفته الغبية تركته - قبل أن يدخل في رحلة بحثه عن مسوغ لاستحبابه الضلالة على الهدى، وقبل أن يحسب أنه - فعلًا - قد انتصر - يستمع لما بعدها من آيات، ليعلم ألا نجاة ولا انفلات ولا خلاص لمن يعمل السيئات من الفتنة..) أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون) بئس حكمهم وبئس ما يظنون.

- بعض الحاجات إذا صادفت قلبًا فارغًا؛ تمكنت، فتلازمه حتى تصبح عنده طبيعة تختلط عليه مع الجبلة والفطرة السليمة، حتى إذا أصبحت عادة وسقاها قلة الفهم والبصيرة؛ استحكمت فصارت طبعًا فصعُب حينها الإقلاع عنها ومفارقتها. ومثال على ذلك، الحاجة إلى الدفاع عن النفس، هي فطرة في الإنسان، لكن قد يعتاد على هذا الدفاع حتى وإن كان على خطأ وغيره هو الصائب، فتلازمه هذه الخصلة حتى تصير عادة مستحكمة، وينمّيها قلة العلم والفهم فتصير طبعًا، أو لنقل ردة فعل ميكانيكية، فما إن تحاول نصحه أو نقاشه حتى يحس بالخطر المحدق بحماه، فيندفع - من غير تفكير - في الدفاع، وربما يستعمل لذلك منطقًا أهوج، وربما

لوى نصوص الشريعة كي ينتصر.. فيتحول الدفاع عن النفس إلى انتصار لها، فيغمط الحق ويتجرأ على العدل.. ويصير ذلك دأبه وديدنه الذي لا يستطيع التخلي عنه.

- أمَرَتْه؛ فأخفى الطاعة، وانتشى المسكين وهو يقطف ثمار النصر على من استعبدته سنين، فإذا بها - زعم - تذل لـ "إخلاصه" و"نيته"، وتطوع لـ"سريرته" و"طويته".. وكم مر على غبنه ووَكْسِه قبل أن يعلم أنه إنما أخفاها ليقال يخفيها..

اللهم يا من ألهمتها تقواها وفجورها؛ قِنَا شُرُكها وشرورها.

- ما رأيت من إناء أكثر نضوحًا بما فيه من النفس:

إن خادعتها، خدعتك وجعلتك تصدق أنك خادعها..

وإن داهنتها بجحتك فبجحت إليك.. وجعلتك تظن أنك من خيرة الناس، وإنك لمن أسوَئِهم إن لم تكن أسوأهم!..

وإن زكيتها.. جعلت جزاءك من جنس تعاملك معها، فزكتك وبشرتك - على ما أنت عليه يا مسكين من غفلة وتيهان - بالجنان وربٍّ غير غضبان.

وإن منَّيتها.. منَّتْك حتى إنك لترى مقعدك من الفردوس الأعلى مع الأنبياء والشهداء والصديقين، فليس يمنعك من دخولها واللحوق بهم إلا أن تموت.

وإن صدَقتها.. صدقتك وأدت إليك حق صحبتها نهيًا وزجرًا وتقريعًا.

وإن حاسبتها.. أذعنت إليك، وأناخت مطاياها لك، وجعلتك أكثر عمقًا وشفافية، وجادت عليك بالنصح والإرشاد حتى إن مثالبك ومعائبك لتمنع عينك الرقوء والرقاد، وإن محاسنك.. وما أنت فيه من عافية لتحسبها استدراجًا وفتنة، فتعجل إلى ربك ليرضيك ويرضى عنك..

فلتكن دائم التفقد لإنائك ما دام لا ينضح إلا بما فيه.

- الأمر الجماعي قسمته فردية

كثيرًا ما كنت أندهش حينما آمر طلبتي بأمر فلا يطبقه منهم إلا القليل..

سواء تعلق الأمر بالواجبات المدرسية، أو بالتزام الهدوء والصمت خلال الحصة، أو بمتابعة الشرح، فأفاجأ بمن يُشَوش.. ومن يلعب.. ومن يتلهى.. وكنت أُرجِعُ - بدايةً - عدم انضباطهم والتزامهم إلى التقسيم المعروف لمعنى السمع، وإلى أنهم استعملوا سمعَ الإدراك، وأهملوا سمع الانقياد والاستجابة. ومرَّ على فهمي هذا سنين.. إلى أن رزقني الله فهمًا آخر وتعليلًا لم يخطر يومًا على بالي.. على لسان طالبة لم تتعدَّ الثالثة عشر من عمرها حينما سألتها: يا هند، ألم

تسمعي؟ قلت: قوموا بحل الواجب في صمت!!

فنظرت إلي في براءة، وقالت: ولكن يا أستاذة، أنت لم توجهي الكلام لي، أنت خاطبت الفصل كله.

فانتبهت إلى أن بعض الناس قد لا يرعوي إذا جاءه الخطاب في جماعة؛ لأنه لا يعلم أن الأمر الجماعي قسمته فردية.. الطالبة كانت تتحدث ببراءة أعلمها في عيونهم، والفهم كان جديدًا عليّ أنا وليس عليها هي.. هي كانت تمارس قناعتها وما كان يبدو لها طبيعيًّا.. ثم هذا كان مثالا، وإلا فهناك من الراشدين من ينهج نفس النهج مع أحكام الدين، فكأن خطاب: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ و﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾؛ هو خطاب للآخر وليس له، فكأنما هو مُعفًى من التكليف. وأنا هنا لا أتحدث عن عدم الانقياد والاستجابة الذي يكون سببه التماطل والتسويف والغفلة، لكن مع الاعتراف بوجوب التكليف، والذي نقع فيه جميعًا، أنا أتحدث عن شرك من شراك النفس الأمارة بالسوء، التي تجعل الإنسان يحسّ وكأنه ليس المخاطب، فمثلًا هو يكذب ويغتاب، فإن رأى ملتزمًا يفعل ذلك قدح فيه، وكَالَ له الاتهامات، فإن نُبِّه إلى أنه هو أيضًا يفعل ذلك؛ قال: أنا لست ملتزمًا.. ويتناسى أن الاستجابة للتكليف هي التي تصنع المفارقة بين الملتزم وغيره، وهي التي خلقت هذه التسميات

التي لم تكن في عهد النبي - ﷺ - ، وبأن الإسلام والاستسلام قبل أن يكون خطابًا للعالمين، هو خطاب له هو أولًا؛ باعتباره مسلمًا بالنشأة.

- لا محاباة في استحقاق التقوى.. تفوز بها أفئدة الخلص الأوفياء.. منبع ومصب، والتقوى تلد التقوى مثلها.
- إنما مثل من يتشدق بالإيمان ويمضي حياته في الاتّكال على شرف تسميته، وعفو العفوّ، وحسن الظن به سبحانه؛ كمثل من اقتنى تاجًا زيَّنَ به هامته، ثم طفق يدَّعي التسيد والملك، أتراه كان سيُمنح العرش والخزائن فقط لأن فوق رأسه تاجًا!؟
- وأعتى السجون أن تكون مقيدًا وأنت تظن نفسك حرًّا طليقًا، وأن تُعمى عينك ويُلجم لسانك، فلا ترى إلا من خلال أعينهم، ولا ينطق لسانك إلا بما لقنوك.. ويجعلك التزويق والتزوير لا ترى إلا ذلك الذي راموا لك أن تراه.. وما زلت تظن نفسك قائد نفسك، وأنت الأسير التابع لهواهم قبل هواك.
- ونحن، إذ نحاول جاهدين عدم الالتفات إلى نظرة الناس إلينا، نجدنا محاصرين بشيئين اثنين - هما شيء واحد في الأصل مع تفريع بسيط: الأول: تبريرنا لسبب وقوعنا في

خطأ نحن نعلم من أنفسنا تلبسنا به، ونعلم أيضًا أن العليم بملابساته وبمكامن ضعفنا أمامه قادر على مغفرته وستره بفضله وكرمه، كما نبهنا إلى أنه خطأ، وأرشدنا إلى الإقلاع عنه وتصحيحه. والثاني: إصرارنا وحرصنا على أن يقتنع الآخر بتبريرنا، فنبذل لأجل ذلك الغالي والنفيس.

- كم من مفاهيم تحتاج إلى أن نجعلها بالقرب؛ نعيد مراجعتها مرة تلو مرة.. كم يخلَق هذا الإيمان الذي في صدورنا ويبلَى، وكم نحتاج معه إلى تجديد.
- ما دخل أصحاب الجنةِ الجنةَ وتمايزوا في درجاتها، ولا أصحاب النارِ النارَ واندحروا في دركاتها؛ إلا بتلك اللحظة الفارقة.. أمام الأمارة والهوى ووعد الشيطان الكذوب.
- أجمل ما في الصدق مع النفس؛ أن تستطيع مواجهتها في كل لحظة وفي كل آن بخطئها دون تربيت عليها، فتقبل منك وتساعدك على حل شفرتها.. اتهامك لها صداقة معها، ولومها بداية وضع الخطى على طريق الإصلاح، وكيل الاتهامات لها ومواجهتها بحقيقتها كشفٌ لها أمامك بما يجعلها تذعن وتعترف، وتمدك برأس الخيط من أجل بداية التصحيح والإصلاح.
- صدقك مع نفسك وقربك الدائم منها وشفافيتك معها، لا يعني بحالٍ أن تمضي الوقت في نبش قبور معائبها والتلصص

على هنَّاتها، وتتبع عوراتها بنية الإصلاح، إنما نحاول ترميم ما ظهر، وتغيير ما طفا، لا أن نغوص في بحرها اللجي، فإما ألا نعود أو أن نعود بمزيد عيوب ودسائس. ويغنيك عن ذلك فهمٌ صحيحٌ لأصول الإيمان وتشبُّعٌ بمبادئ العقيدة؛ فهي كمضاد حيوي تقتل أو تثبط نمو النقائص.

- ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ ﴾ لا تكثر علي المعاذير، ولا تحاول أن تقنعني، بل افعل مع نفسك وقبلها مع ربك.. لا تمار في أفعالك، ولا تجادل في مخبوءاتك، ولا تزكِّ نفسك.. ليس عليك من بصيرة سوى نفسك، وقبلها، فربك أعلم بحالك.. إن كان من عذر، فلربك وليس لي.. فما أنا سوى مخبوءات وسرائر مثلك.
- أمام الابتلاء، أحيانًا يكون الصبر والتسليم مع الرضا بالمقضي؛ أيسر ألف مرة على النفس البشرية المجبولة على الخمول والركون إلى الأيسر، من التشوف إلى ما عند الله واليقين في حصول التغيير.. فهي تركن – في الغالب – أمام اختيارين صعبين – إلى أهونهما وأيسرهما.. فلا أسهل عليها – مرات – من الاستكانة والرضوخ للمقدور على أن تتعلق بالأمل.. وقد تنتقل من هذا إلى ذاك دون أن تشعر، فلنتفقدها أثناء مسيرها إلى الله فقد نسقط في سوء الظن بربنا

دون أن ندري.. ونحسب ذلك رضًا ورضوخًا. ولنترك أبواب قلوبنا مُشرَعة للقادم الجميل.. ولنحسن الظنَّ بمن هو عند ظننا به سبحانه.. ملحوظة: فرق بين الرضا بالقضاء والقدر الذي هو واجب، وبين الرضا بالمقضي والمقدور، نحن مأمورون بعدم الاعتراض على ربنا في حكمه وتقديره، ولسنا مطالبين أن تطيب لنا البلايا والمُلمات.

- هل يمكن أن تكون الأيام كفيلة بأن تنسينا؟ ونحن، ما إن نصطدم بأنفسنا على حين غفلة من التناسي، أو أمام صورة مثيلة لما تعج به ذاكرة الألم الخامدة، حتى تتقافز إلى أذهاننا كلُّ صور الوجع القديمة..

ذاكرة الألم لا تشفى.. ربما تُتجاوز.. لكن سرعان ما تطفو على السطح كلُّ تلك الأشياء التي خِلنا - يومًا - أننا دفنَّاها إلى غير رجعة، فإذا بها تنبعث من مرقدها من غير سابق موعد.

- بعض هواجسنا ووساوسنا تخطها الذاكرة الموشومة بالخذلان.. هي نتيجة حتمية لبقايا مخزون الوجع في اللاوعي.. وامتداد - شئنا أم أبينا - للخوف والخشية من تكرر المواقف، ومن استنساخ الصدمات، ومن تكرير التاريخ لنفسه، ومن استيقاظ تلك الجروح التي قاومنا كي تلتئم، ومن أن تتردد صدى - عند تشابه المواقف - صوت

تلك الندوب الخامدة المخفية بمهارة في ثنايا الذاكرة.. فهل تشفى الذاكرة المعتمة تمامًا مع إطلالة خيوط النور؟ وهل تضمن لنا ألا تمتد شرائط الخيبة فيها أمامنا كلما زعمنا أننا محوناها، وكلما أقنعنا أنفسنا أن الحال ليس كما الحال؟ وهل بنا من قوة كي لا تنتفض قلوبنا الغضة المرهفة كلما رأينا حبلًا؛ خوفًا من أن يكون ثعبانًا؟

- نسيان.. تنسينا بسمتُنا الباهتة المبتذلة دمعتَنا الصادقة المتجذرة في عروق الوجع.. تنسينا فرحتنا بالعودة ذاكرتنا الموجوعة الموبوءة بالألم.. ينسينا الكلام قبور الصمت الرهيب وأقباء السكون المضني.. تنسينا الكتابة حاجاتنا القابعة في زوايا قلوبنا المترعة بالانتظارات.. ينسينا الانشغال والانهماك وحدتنا وغربتنا.. ينسينا استشرافنا للمستقبل رتابة الماضي، ويقتل فينا الشوق والحنين للذكرى.. وتنسينا زحمة الحياة أحلامنا الصغيرة وأمنياتنا الجميلة، فنستعيض عنها بالواقع، يجرفنا تياره بعيدًا عن ذواتنا؛ كي نستمر في تقمص الحياة.. نتناسى ولا شيء ننساه حقيقة.
- عبثًا نحاول إخفاءه.. عبثًا نحاول تجاوزه.. عبث ذلك الذي نسميه نسيانًا، وما هو سوى محاولة فاشلة في ارتداء الأقنعة، والتخفي بالمساحيق.

- النسيان! هو وجع كل إنسان.. إنما يكابر من يقول إنه ينسى.. عوض أن نفني عمرنا في محاولاتنا اليائسة لنسيان الألم، فلنعمل على صنع مفاعِلات لاستمداد القوة كي نواجه ونتحدى، ونستخرج من أنقاض ما يموت داخلنا؛ فتائلَ حياة.
- ولكم ندعي بعد كل وجع ميلادنا الجديد، ونشوتنا بتشييد جسور العودة إلى أحضان الحياة.. وننسى أن نودع ذلك الذي يموت كل مرة فينا، وأن نعزي أرواحنا على ألم الفقد.. ننسى أن تلك القبور التي ترسمها أوجاع الخيبة والخذلان، لا تليق إلا بأرواح نسيت يومًا أن تحيا، فمُنعت عنها الحياة. وكم ندعي.. وكم ندعي!!
- زكاة علمك، وشكر ربك على نعمة هدايتك، وحفظك مما ابتلى به غيرك؛ أن تنصح خلقه، وأن ترفق بهم، وأن تكون حريصًا على أن يسمعوا منك وأنت تحدثهم عن ربهم.. وأن تستفرغ الجهد في كسبِ تائبٍ على الطريق، وأن تعينه على الثبات لا أن تكون عونًا للشيطان عليه، أو أن تيئسه من مغفرة الله من كثرة تهويلك لأمر ذنبه.
- وليس مثل الرحمة في مقابلة إساءة المذنبين، وليس مثل عذرهم والرأفة بحالهم والحرص على رجوعهم لربهم؛ أكثر

من تقريعهم، ومساعدتهم في الأوبة، فإن المذنب شارد تائه، والشارد يحتاج لمن يخرجه من المفازة، ويشعل له المنارة، ويوقد له شموع العودة، لا من يزيده بتأنيبه وتقريعه وتوبيخه تشتتًا وسدارةً في شعب التيه.

- إذا رأيت من ابتُلي بذنب؛ فاسأل الله الستر، واحمده على العافية، ولا تزكِّ نفسك، فإن الذي جعل الذنب يتخطاك لغيرك؛ لقادرٌ على أن يجعلك متلبسًا به.. وتذكر: (لقد تابت توبة لو قُسّمت بين سبعين من أهل المدينة لوسِعَتْهُم...) رواه مسلم.
- كلما صادفتَ من يخالف الحق ومن يتبع الهوى ومن حاد عن الصراط؛ فادع له بالهداية، ولك مثل ما دعوت به، واشكر الله على نعمة العافية، واحمده تعالى على الهداية والتوفيق، وتذكر أنك كنت - ذات يوم - ذلك الحائدَ وذلك المقصر، وكلنا مقصر لولا لطف الله وستره وعفوه سبحانه، ولولا فضل الله ومنَّتُه لما اهتديت، ولما علمت الحق من الباطل، فعلام الازدراء والنظرة الشزراء!، وعلام التعالي والتباهي!؟ (كذلك كنتم من قبل فمَنَّ الله عليكم)
- إذا أزَّتْك نفسُك على الاستهزاء ممن وقع، ودفعت بك إلى احتقاره؛ فاخْشَ أن يكون ذلك تنزيهًا لنفسك، وتذكر أن الذي أطاح به في المعصية قد أخذ على نفسه عهدَ التربص

بكل مطيع، وأن لك من السقطات والهنات ما قد يفوق سقطة من عليه قد تعاليت.

- الحمد لله الذي جعل النوايا وكوامن النفوس وأسرارها؛ من علمه وإحاطته سبحانه، وما كلفنا أن نشق على الصدور.. فلنأخذ بالظواهر، ولنترك السرائر لرب السرائر.
- وأمام امتحانات الحياة التي لا تنتهي.. قف، تمهل، وصِلْ رأسك بقلبك.. وكن دومًا على أُهبةٍ واستعداد لما تلقيه الحياة في طريقك من ابتلاء وتمحيص.. وتذكر أنك في كل لحظة مُمْتَحَن، وبأن ما هي إلا لحظة كلمح بالبصر تركن فيها إلى هواك، أو إلى رقابة المولى؛ فيكون التمايز والاصطفاء.. دخلت بغيٌّ الجنة في لحظة إنسانية.. ودخلت امرأةٌ النار في لحظة عتوٍّ وتجبر.. في كلمةِ رضوان لحظةُ رضوان كتب له الرضوانُ إلى يوم القيامة وآخر هوتْ به كلمةُ سخط لحظةَ سخط في قاع جهنم.. فانظر إلى اللحظة الفارقة التي تكون لك سببًا في فوز ونجاة، أو في سخط ولعنة وعذاب.
- لماذا يكون الناس في البدايات أجمل؟

إما أنهم يتظاهرون بالجمال، ويبرعون في أداء مهمتهم في خطف الألباب - حتى إذا ما كان الاقتراب منهم، لم يطل تخفيهم.. ينتهي رصيدهم في التمثيل؛ فيُضطرون الى أن

ينزعوا القناع، فيبهت في أعيننا وميضُهم، ونضطر الى أن نتجرع الخفوت والأفول وغروب الشمس بعد طول وهج.. وإما نحن من نصنع جمالهم.. سطوة الدهشة تصنع في أعيننا بريقهم.. وإما أنهم مازالوا مطوقين بالجمال، وإنما نحن من تغيرت زاوية نظرنا إليهم.. أو أن الشغف تقتله لذة الظفر بالوصول ونشوة الانتصار في الحصول على ما كان جمالًا برَّاقًا بعيد المنال.

زفراتٌ على أعتاب النهاية

- ماذا لو استيقظت يومًا، لتجد نفسك رغم وِردك من الأذكار، ورغم قراءتك القرآن، ورغم كلّ من يحيطون بك؛ تحس بوحدة ووحشة رهيبة.. تحاول فك شفرة ما يحصل لك، وربط النتائج بالأسباب.. تفتش وتفتش.. فلا تجد بما تشبّه به ما أنت فيه سوى وحدتك في القبر.. وتجد نفسك تردد من غير وعي: "اللهم أحيني ما علمت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيرًا لي.. اللهم هبها ساعة رضا.." فإذا بعبارة "ساعة رضا" توقظ وعيك.. تنبش بك ذاكرتك الموشومة بالآثام لتواجهك بحقيقتك.. تقلب صحائف أعمالك فلا تجد فيها غير الكسير والعوير، وذنوبًا أثبتت فيها بجدارة تلبسك بالوحل والطين والدون والهوان والجرأة على الحليم المنان.. فتبقى نفسك التي تاقت منذ لحظة إلى لقاء مولاها، وأمّلت في الخلاص من رحلة الشقاء، وعلقت الأماني على أن تؤنس وحشتها في كنف الرحيم الرحمن، تبقى معلقة ببرزخ، لا هي راكنة للدنيا فأوجاعها قد هدَّتها، ولا هي راحلة إلى دار الهناء، فكل الزاد خوف وأماني، وكل

الأعمال محض رجاء.. لكِ الله من قبل ومن بعد، يا أيتها النفس الموقوفة على مقصلة حقيقتك الموجعة.

- سنظل نركض ونركض، نرسم الأحلام المخملية، نلونها بألوان القوس، ونغرق النفس في الأماني.. نبكي تارة على سجون أرواحنا العليلة، وتارة نطرد العتمة ونعانق خيوط النور.. وتارات نسابق الزمن، نرنو إلى السنوات المتصرمة من عمرنا، فيأخذنا الحنين لمعانقة ما سرقته منا نوائب الأيام، لنتدارك ما ضاع منا في زحمة الحياة.. نسابق الموت كي لا يدركنا قبل أن نحقق حلماً طفوليًّا نسفته شيبات شعرنا المشتعلة قبل وقت الاشتعال، وغرق في لجج الأخاديد المحفورة في قلوبنا الهرمة قبل أوان الهرم.. سنظل تتقاذفنا بسمة ودمعة، وتجرفنا الطرقات المتشعبة.. ونمضي حياتنا في فك شفرات الأحلام وطلاسم الأيام؛ لنستفيق على ثوب أبيض وخشبة وحفرة.. فاللهم اجعلها ساعة رضا.. اللهم اجعلها ساعة توبة.. اللهم اجعلها ساعة أنس بك، ورجاء في رحمتك وفضلك، وشوق إلى لقائك وإلى النظر إلى وجهك الكريم.
- قاصمة : أن نعلم أن الوفود على عليم رقيب سميع بصير محيط شهيد مهيمن حفيظ؛ وألا نهيئ جوابًا كافيًا مستوفيًا

مقنعًا لما نحن عليه إذا ما بادرنا ملك الموت، وحضر الوقوف بين يدي الآخذ بالذنب شديد العقاب.. هيئ جوابك، ولتحرص على أن يكون منمقًا مزوّقًا مرتبًا بليغًا كما تفعل في الدنيا، لكن تذكر أن الوفود على عليم، وأن الشهادة - يومها - ممن أنطقها الذي أنطق كل شيء.

- وضجة الروح الماثلة بين الألم وبين اليأس من دنيا الذبول والأفول، المتقلبة في خيبات الحياة المتكررة؛ لَتمدنا - وهي تسدر بنا في رحبات دار لا تفنى - بنكهة عذبة في تذوق معاني الحياة، ولتتقلب بنا في مفارقة عجيبة بين يأس منها ورجاء فيها، وبين عيْفٍ لمجملها وحب عنيف لتفاصيلها، تعلمنا أن نحبها لا لنحبها.. ولكن لنكدّ ونجتهد لنجعلها وسيلة إلى هناك كي تكون الباقية خيرًا ممن أثخنت قلوبنا بالخيبات.

- هناك حيث التقاء الطين بالطين، وامتزاج ظلك بظل السنين التي سبقتك لمرقدك الأخير، يستريح - أخيرًا - جسدك المُنهك من الركض واللهث وراء تلك الأحلام المتمنعة التي أرهقها الفرار منك.. فياليت شعري أهي رحلة جسد وروح من شح الدنيا وضيقها إلى رحابة منة المنان، أم هي بداية الخطو في دروب الوجع الحقيقي..

اللهم برحمتك نستغيث.

- إن أردت سوطًا نافعًا لقلبك، فاسمع أخبار من فارقوا الحياة في عز الشباب.
- وهذا الموت المحدق يحوم بيننا.. يخطف كلّ يوم من هم في أعمارنا، بل أصغر، ويفجع قلوبنا على وجوه قد كانت بالأمس القريب ينير مصباحها الأخضر وحرفها المؤنس شاشاتِنا الزرقاء، أو يشاركوننا جزءًا من حيواتنا.. نذرف الدموع الحرَّى على من عرفنا منهم.. وعلى من لم نعرف، فالموت في أبسط معانيه حرقة على اختطاف، وألم على من لم يعد لنا من نصيب في اللقاء بهم على أرض الأوهام.. لطمة تذكرنا بأن دورنا القادم، وصفعة تنبئنا أن نقف، أن نتريث، أن نوقف نزيف الأيام المتسربة من بين أيدينا بين لهوٍ وغفلة وتسويف.. وأن نتذكر أن صحيفتنا لم تطوِ بعد، وإن طيَّها لقريب فنأخذ بالحزم.. اللهم ساعة رضا.
- وها أنا ذي أرحل كل يوم إلى هناك، أرقب رمسي ولا أتخير كفني، أطل على مسكني المحفور على أعتاب أجداث من رحلوا، ويلفني الصمت الرهيب.. ذلك الصمت الذي اعتاده قاطني الجوار.. تعوي ريح الخواء في أذني، وتنداح رائحة الهباء بين دمي وأديمي فأرتعش.. أتذكر ذنوبًا كبَّلتني.. وتوبة كم تقاذفت روحي بين إسراء ومعراج.. وأرى الميزان وبرهانًا من

ربي قد رأيته رأي العين فتهاونت وتخطفني ضعفي، وأغرقتني بشريتي في موج تقصيري اللجي.. أذكر حقوقًا أثقلت كاهلي، وأحبة يحيون ببسمتي، وزغابى لا ماء لهم ولا شجر.. أرى عمق الحفرة وضيق الكوة، وقلة الزاد للمعاد.. فألملم بقاياي المنقوشة على جسر العودة؛ ثم أعود.. علني أحسن فيما بقي كي تهفو نفسي إلى هناك.. وتلوذ بالراحة والسعادة السرمدية بمنة رحيم، واسع الجود، شكور.

- ذلك الإحساس بأنه قد ضاع من العمر ما يكفي، وبأن ما بقي مهما بقي لن يطول، وبأن العد العكسي قد بدأ.. وبأن الشتلة التي باليد لا بد من غرسها قبل أن تدق ساعة النهاية.. كم يضخ في عروقنا من دماء جديدة، وكم يحدو بنا كي نحث الخطى، فلا نلتفت إلى ما مضى إلا للحسرة على ما ضاع في جنب الله، وللتذكر بأن ما بقي لا بد أن يكون لله تحت عين الله. اللهم فاجعلها ساعة رضا، ويسر للرضا قلوبنا، وطوّع له نفوسنا، ولا تؤاخذنا بما كان منا وبما يكون، وثبِّتنا على طريقك الأوحد الممتد المستقيم حتى نلقاك.

- متقلبون، سادرون في بشريتنا.. نسابق الموت تارة كي لا يدركنا قبل أن نحقق حلمًا طفوليًّا نسفته شيبات شعرنا المشتعلة قبل وقت الاشتعال، وغرق في لجج الأخاديد

المحفورة في قلوبنا الهرمة قبل أوان الهرم.. وتارات نلوح بالراية البيضاء، تهفو قلوبنا المترعة بالخيبات، المشبعة بالأوجاع؛ إلى نهاية الرحلة، ساجدة للرءوف الرحيم أن يقبضها إن علم خيرنا في قبضها.. اللهم ساعة رضا.

- ويفر اليوم كما أمس وكما الذي قبله، ونظل نقلب أكفَّنا على سويعة من زمان أبت أن تحبس الوقت بين مخالب عقاربها حتى نستكمل إحساسنا بمرور تقسيم زمني اسمه "يوم"، ونستكمل معه غرس الفسيلة، فتأبى إلا أن تركض فتركض معها أنفاسنا.. تلاحقها علها تدركها، فلا توافق وقفة استراحتها إلا والزمان غير الزمان، والمكان هوّة تتسع لحطام عبث الحياة بالراكضين خلف هلام اسمه حياة.

- لو استعرضنا أمامنا حياتنا بشيء من البساطة.. وكثير من الشفافية والعمق، فسنجد أننا إما أمام مشروع قد تحقق وقد كابدنا لأجل تحقيقه، وبذلنا في سبيله سهرًا وتعبًا وتوترًا وحرق أعصاب؛ لنصل في الأخير إلى لذة آنية لا تعدو أن تكون فرحة لحظة تحقيق النجاح والإنجاز، لننتقل بعدها إلى الرتابة والملل وانفراط عقد النشوة بعيد حصولها، ومن ثم علو الهمة لتحقيق نشوة أخرى يسبقها كد وتعب، ثم تنتهي كصاحبتها.. وإما أمام مشروع لم يتحقق، فما زلنا ننتحب

تارة لعدم وصوله، ونبذل قصارى جهدنا لأجل ذلك، ثم ما نلبث أن نعلم أنه لا سبيل إليه فنيأس ونستكين، ونمضي ما تبقى من حياتنا بين خفقة محاولة الوصول وحرقة الإخفاق.. ثم يرفع عنا الستار، وتنتهي فصول المسرحية، ونخرج منها كممثل أدى دوره على كل حال، ولربما لم يكن ذلك اليوم يومه ولم يحالفه التألق.. لو علمنا علم اليقين أن الزوال يفسد الفرحة، وأن التكرار يقتلها، وأن لكل البدايات نهاية واحدة؛ لتاقت أرواحنا لما لا زوال له، وللفرحة الحقيقية حيث الخلود والسرمدية، والراحة الأبدية التي لا تعكرها أحزان، ولا يفسدها تكرار ولا رتابة ولا زوال.. ولعملنا لأجلها بهمة ونشاط، ولهَان في سبيلها الكدُّ والتعب، ولاستبشارنا بحتمية النهاية السعيدة.. لكنها الغفلة والضعف والانسياق مع أمواج الدنيا، موج يرفعنا وموج يخفضنا، نطفو أحيانًا وأحايين يبتلعنا اليم.

- غربة.. تلك التي تجعل الصمت يخدش عبق الكلمات.. تلك التي تمنع عن الإحساس طقوس الإحساس.. تسرق من الروح تفاصيل الجسد.. ومن الجسد تفاصيل الروح.. وتؤاخي بين ترانيم الاستيطان وتباريح الرحيل.. غربة.. تلك التي تجعلك تحن للتراب.

- تذبل أحلامنا تترى، حتى إذا ما مات آخر ما فيها، انتفضت الأجسام تستقبل قطيرات ندى، وبَليلًا يبعث في عروقها مزيدَ أمل يعبر بالقلوب أرض الخيال، والأفول إلى عالم السرمدية والحقائق الجليّة.. عالم العطايا والهدايا، والأجر بغير حساب.
- قالت: كل الأشياء الجميلة تغادرنا.. لا تتوانى في حمل حقائب رحيلها المبكرة المستعجلة.. فقلت لها: كل الأشياء الجميلة، وكل الأشياء المشينة، وكل ما أسعدنا، وكل ما أتعسنا، وكل ما عشنا عمرًا نرقب مجيئه.. سيغادرنا.. إنما هي رحلة قصيرة، ثم... إن لبثنا إلا ساعة من نهار نتعارف بيننا.. والسعيد من كانت معرفته بالله وفي الله.. ولله.. وحمل من الزاد ما يبلغه المآمن.
- تحسس ذاك الذي يموت كل لحظة فيك.. تحسس نيتك المتلونة المتمنعة المتقلبة، وسريرتك الموقوفة على باب السلامة والستر والعافية.. تحسس كلامًا صنت دهرًا عنه لسانك، فلما مات فيك العدل والإنصاف والتوقير والحياء؛ نبست شفتاك بما تنهد له الجبال، وتمور له الأرض، وترتج من زلزلته القلوب ارتجاجًا.. تحسس قلبك التائه بين الحق والباطل، والشك واليقين، المتقلب بين هدير المشاعر ولجلجة الصمت

المميت.. تفقد بسمتك المصلوبة على مقصلة الأحزان، واستبشارك الناضب بنضوب اليقين فيك، والثقة فيما عند الكريم، والضجر من توالي الليل والنهار بما لا تعشقه نفسك الحريصة التوَّاقة لاستجلاب النفع والتفرد به.. تفقَّد همتك واربأ بها أن تبقى ترابية تعشق الطين وتركن إلى الدون.. تخشى البوارق ويثنيها الأذى والهموم عن معانقة النور.. تفقد الصبر فيك ومقامات العبودية في قلبك.. تفقد نفسك المجبولة على التقتير، واستعذ بالله من شحها ومن شرورها وشُرُكها.. تحسس كل أبعاضك، وكل أجزائك، وكل ما لا يزال ينبض فيك؛ فإنها إن ماتت مات الإنسان فيك.

أنداح التوبة.. ومغاسل الأوبة

أنبئ ذنوبي أنني جافيتها
وعلى القيود دماء قلبي تندم

عرِّج وخبرّها بأن شروكها
قد صادها سهم الظلام الملهَم

وانبذ إلى سوء الفعال لعلني
بعد الوصال بهجرها أتنعم

- فلأنه كريم جواد؛ جعل نبتتك طيبة، وغرسك متأصلًا في القرب منه سبحانه.. وتلك الفتيلة في أعماقك ستبقى ما بقيت فيك الروح، تتوهج أحيانًا، وتخبو أحيانًا.. لكنها موجودة.. ولأنه عفو، تواب - سبحانه - يحب التوابين، ويحب من إليه أناب.
- العبادة فرض، والذنب وارد، والخطايا تطوق الأعناق، والدواء توبة بعد توبة.. بعد توبة إلى أن تفيض الروح.
- بداية السيل قطرة، والبُلغة تبغي ضربة بداية، وتلك الضربة لا تعدو أن تكون توبة صادقة تضع بين أيدينا بداية الخيط

الممتد الطويل، وصدقًا مع أنفسنا، وقبله مع خالقنا؛ كي ييسر لنا طريق الإياب.

- أن تنتبه وسط الطريق فتتدارك ما أخسرتْكَهُ رحلتُك في رحاب الاستعماء؛ خير من أن تكمل المشوار بلا عكازة ولا دليل ولا فتيلة تضيء لك العتمة.
- ولكم نتوه خلال الرحلة.. تتخطفنا الطرقات، وتعصف بنا رياح الحياة.. نركن للدنيا وتشغلنا الأموال والأهل والأولاد.. تعصف بنا رياح المشاكل.. تتقاذفنا يمنة ويسرة.. وتلك الشعلة المتوهجة سرعان ما تخبو وما يتبقى لنا منا سوى ذكرى وهج ودفق بدايات الالتزام.. نتحسر حينًا ونبرر لأنفسنا أحيانًا ما آلنا إليه، وتستمر الرحلة.. لكن الجذر النابت أول ما نبت بقوة؛ يحن إلى عنفوانه وإلى وهجه، فيعاهد الله على تجديد الإيمان في عروقه، ومعانقة الوهج بعد طول انطفاء.
- من قبضة الذنب وسجن الخطيئة وبراثن العصيان؛ أرسل زفرات ندم، وحرِّك القلب بالذكر والاستغفار.. فإن النور يغالب العتمة.. وإن مضغة تئن شوقاً للنقاء ولبراءتها وللذة الخضوع ونعمة الرجوع؛ لحري بها أن تنبت من جديد كما ينبت البقلُ من لمسة ماء بضفاف الأنهار.

- اللهم لئن لم تقبل أعمالنا؛ فاقبل بقبول حسنٍ دعاءنا.. ما خفيت عنك غفلتنا، وما تاه عنك ما كان منّا من تقصير، اللهم عباد ضعفاء وأنت القوي، أذلاء وأنت المعز، غافلون وأنت الحليم العفو.. قد ذاب اللسان حياءً أن يسألك النجاة، وانصهر القلب حسرةً على التفريط، فانظر بعين رحمتك التي وسعت كل شيء إلى هذا الشيء الذي لا يرجو من دنياه سوى رحمتك.
- ويالها من بشارة أن تأتيك أخبار مَنْ مَنَّ الله عليهم بالتوبة، واغتسلوا بدموعهم من الخطيئة، ولاذوا بكنف الله وعفوه ومرضاته، ومرّغوا أنوفهم بين يدي الله، معترفين بالضعف والتقصير، طامعين في الستر والعفو ورحمة اللطيف المنان.. ما أسعدنا بالقرب من قلوب ودموع حديثة عهدٍ بربها.
- (وإني لغفار لمن تاب وءامن وعمل صالحًا، ثم اهتدى(التوبة منّة من الله، والعمل الصالح توفيق منه سبحانه، ولا نفع لهما إن كانا سببًا في الطغيان والاستكبار على الخلق، ولا فائدة منهما إن لم يكن الاستمرار على الهدى والثبات عليه، والاستقامة على أمر الله.
- وتتوالى علينا النعم ومعها ستر الله.. سنة الله في استصلاحنا الباب مازال مفتوحًا ما لم تغرغر.. فاشكر نعمه بالعودة إليه..

- الذنب الذي لوّن أيامك القديمة.. لا تجعله يلحق يومك الجديد.. فجر جديد.. توبة جديدة.. وقفات مع النفس لاستكمال فضائلها.. أنت إنسان بضعفك.. إنسان بصوْلتك وثورتك على ما يريد تكبيلك.. نسمات الصباح.. تغري بتجديد التوبة والعزم على أن نُري الله منا ما يحب.
- حطم قيدك، واغتسل بماء التوبة؛ كي تنبت كما تنبت الحبة في حميل السيل، وارحل عن بِرَك المعصية والدون التي تغرقك في أوحالها وتثقل خطوك وتهوي بك في سُحْقِها.. واعلم أن حبك الخير للناس الذي جُبلت عليه.. إنما هو جذوة تذكرك بأن في أعماقك طاقات نور آسنة قد غيرها طول المكث، وروح تواقة للعلا يكبحها التسويف تارة والعجز والكسل أخرى، والغفلة بين هذا وذاك تسقيها حممها. قم وانفض عنك الغبار، وأسعف روحك التواقة للسمو.. كن "فردوسيًّا" "كوثريًّا"، واترك ملاهي الحياة وملاذَّها للمغضوب عليهم وللضالين.
- أيا نفس، ما لي أسقيك توبة وأوبة وماء فردوسيًّا، وتسقينني التمرد والعصيان!؟ ما لي أدعوك إلى السمو والقدسية والملائكية، وتدعينني إلى البهيمية والدون والهوان!؟ أقسمت عليك يا نفس ألا تجريني.. ألا تكبليني.. ألا تزيني

لي الباطل فتسقطيني.. ألا تعمي عيني عن خيوط النور، فتهوي بي وتهزميني وتدحريني، وعن باب ربي تطرديني.. أقسمت عليك يا نفس.. أقسمت عليك يا نفس.

- وماذا بعد برد عفوٍ يُنعش القلب المنكس الغارق في غفلته وفي العصيان، فيرتد بشم أقمصة الستر والغفر والعفو من بعد العمى بصيرًا! وماذا بعد أمن في السرب وعافية في البدن وفي المعاش وفي الأهل وفي المال؟

- والنفس متقلبة بين النعمة، وبين غرقها في لجج العيوب والتقصير.. فلا النعمة قد شكرناها حق شكرها، فالذنب ما ترك للسان حروف شكر، ولا للجوارح مطالعة المنة وشهود حلم الحليم؛ ولا الذنب قد اغتسلنا منه بماء التوبة والحوبة والانكسار بين يدي الستير الغفار.. قد أفسد علينا الذنب عبوديتنا، وكبلتنا الغفلة وطول الأمل والتسويف.. وإنما المؤمل فيه: عفو العفو سبحانه محب العفو، غافر الذنب، الحليم المنان.. فلنكثر من سؤال الله العفو، وأن يمحو عنا السيئات.

- عاصمة: استبشر.. فربك الله.. ومازال ذلك المعنى يأسرني كلما تذكرت قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٧٠﴾ هداية من الله، وتوفيق لتعويض

السيء بالحسن أو.. تبديل الذنوب بعد التوبة إلى حسنات قال الراغب: الإبدال والتبديل، والتبدل، والاستبدال، جعل شيء مكان آخر وهو أعم من العوض؛ فإن العوض هو أن يصير لك الثاني بإعطاء الأول. والتبديل قد يقال للتغيير مطلقًا، وإن لم يأت ببدله، قال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ﴾ - ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنًا﴾ وقال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٍ﴾ قيل هو أن يعملوا أعمالًا صالحة تبطل ما قدموه من الإساءة، وقيل هو أن يعفو تعالى عن سيئاتهم، ويحتسب بحسناتهم.اهـ من (المفردات في غريب القرآن) وقال الشوكاني في تفسيره: والإشارة بقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٍ﴾ إلى المذكورين سابقًا، ومعنى تبديل السيئات حسنات أنه يمحو عنهم المعاصي، ويثبت لهم مكانها طاعات. قال النحاس: من أحسن ما قيل في ذلك أنه يكتب موضع كافر مؤمن، وموضع عاص مطيع. قال الحسن: قوم يقولون التبديل في الآخرة وليس كذلك، إنما التبديل في الدنيا يبدّل الله لهم إيمانًا مكان الشرك، وإخلاصًا من الشك، وإحصانًا من الفجور. قال الزجاج: ليس يجعل مكان السيئة الحسنة، ولكن يجعل مكان السيئة التوبة والحسنة مع التوبة، وقيل: إن السيئات تبدل

بحسنات. وبه قال جماعة من الصحابة ومن بعدهم، وقيل: التبديل عبارة عن الغفران: أي يغفر الله لهم تلك السيئات لا أن يبدلها حسنات، وقيل: المراد بالتبديل: أن يوفقه لأضداد ما سلف منه. اهـ. وقال السعدي رحمه الله : ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖ﴾ أي: تتبدل أفعالهم، التي كانت مستعدة لعمل السيئات، تتبدل حسنات، فيتبدل شركهم إيمانًا، ومعصيتهم طاعة، وتتبدل نفس السيئات التي عملوها، ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبة، وإنابة، وطاعة، تبدل حسنات، كما هو ظاهر الآية. وورد في ذلك حديث الرجل الذي حاسبه الله ببعض ذنوبه، فعددها عليه، ثم أبدل من كل سيئة حسنة فقال: "يا رب إن لي سيئات لا أراها ههنا"، والله أعلم.اهـ من " تفسير السعدي".

وقال الحافظ ابن رجب في (جامع العلوم والحكم): إنما التبديل في حق من ندم على سيئاته، وجعلها نصب عينيه، فكلما ذكرها ازداد خوفًا ووجلًا وحياء من الله، ومسارعة إلى الأعمال الصالحة المكفرة؛ كما قال تعالى: إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا. وما ذكرناه كله داخل في العمل الصالح، ومن كانت هذه حاله؛ فإنه يتجرع من مرارة الندم والأسف على ذنوبه أضعاف ما ذاق من حلاوتها عند فعلها،

ويصير كل ذنب من ذنوبه سببًا لأعمال صالحة ماحية له، فلا يستنكر بعد هذا تبديل هذه الذنوب حسنات، وقد وردت أحاديث صحيحة صريحة في أن الكافر إذا أسلم وحسن إسلامه تبدلت سيئاته في الشرك حسنات، فخرّج الطبراني من حديث عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبي فروة شطب أنه أتى النبي - ﷺ، فقال: أرأيت رجلًا عمل الذنوب كلها، ولم يترك حاجة ولا داجة، فهل له من توبة؟ فقال: أسلمت؟ قال: نعم. قال: فافعل الخيرات واترك السيئات، فيجعلها الله لك خيرات كلها. قال: وغدراتي وفجراتي؟ قال: نعم. قال: فما زال يكبر حتى توارى)ا.هـ وأيًّا كان التبديل وشكله، فيا لها من كرامة ونعمة، وأية نعمة أن تكون عبدًا لواسع الرحمة الغفار اللطيف بالعباد؟ أية كرامة أن تسيء، وأن تتمرغ في أوحال المعصية، ثم إن أنت تبت صُيِّرت سيئاتك حسنات على مراد الله ومشيئته! لك المنة أنت التواب، ولك المنة أنت الجميل، ولك المنة أنت اللطيف.. سبحانك.

- تلك الطرق التي تتخطفك، تغالبك، تحاول الانتصار عليك.. ومزعات قلبك المشتتة التي تروم التئامًا.. وانصهارك في بوتقة النور كي تولد من جديد.. واضطراب خطاك على درب الوصول.. يكفيك أنها قد اختارت الوصول.. ويكفيك أن

العليم بحالك المطلع على صدق أوبتك بالقرب منك.. ويكفيك فرحته - سبحانه - بحطّك الرحال على مرافئ العودة.

- توبتك رأس مالك.. لا تضعها في جراب مخروم.. حافظ عليها، واسأل مُقلب القلوب أن يثبت قلبك على دينه.
- وفي الحياة.. كم نحتاج إلى إعادة النظر في مسئولياتنا ومهماتنا.. تنتهي مهمة لتبدأ أخرى.. وفي خضم الأحداث وتضافر التغييرات، ننسى مهمتنا التي لأجلها خلقنا: العبودية.. وحدها تنسينا هموم الحياة، وتذكرنا أن الذي شرفنا بعبادته - سبحانه - حرَّم على نفسه الظلم الذي نكتوي به من العباد، والخذلان الذي يصلوننا به.. والقهر والاستبداد والتسلط الذي يغرقنا في لججه.. سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا.
- فإن أصلح بينك وبين الناس، منة وتفضّلًا؛ فاهرع إلى إصلاح ما بينك وبينه سبحانه.. ولا تتكل على دوام عفوه وستره.
- لملم ضعفك وفقرك وعرَجك وسرْ إلى ربك.. لا يحيدك عن الطريق سقوط ولا انكسار.. فإن كان من منية فعلى الطريق.. وإن استدرجتك بنياته.
- قالت باكية: لوددت أن أعلم أن الله راضٍ عني، وأنه - سبحانه - سينظر إلي يوم القيامة..

جربت إعراض من حولي عني، وكابدت صمت زوجي وإحجامه عن الكلام والنظر إلي؛ فكادت روحي تزهق، فكيف إذا كنت ممن لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يكلمهم، أكنت لأطيق إعراضه سبحانه عني!؟

لله المثل الأعلى.

- الروح السادرة في حصائد الغربة والغفلة والتيه، اعرج بها تطوّف بمحاريب السجود ومقامات التسابيح وبيت الضراعة العتيق.. تلبي نداء القرآن، وتهرول بين الكرم والجود والسماحة وطاقات النور الكامنة في الوجدان..

تباريح الألم.. وتواشيح الأمل

الحــــزن يـبـلـعـهـم إذا لانـــوا له
وأنــا إذا جـلُـد المـسـير أبـيـت صـبرا

جــلَــد الــســماء أطـــالــه بـعـقـيـدتي
وأعـــود مــن كمد البلا بـغـراس بشرى

يـــا ســـائـلي فـــرحًـــا أثـــمـــت لهـجـره
قـهـرًا حزنت ومـا سألت الحـــزن مهرا

نفسي الـتـي اعتمرت بـبـاب سجونه
نــثــرت فــتــائــل بـوحـهـا لتصير جمـرا

جمــر الـــفـــؤاد أدوســـــه بـقـصـائـدي
وأذيـــب ثلج مواجعي فتحيل حبرا

ســحـــر المـــســـاء أنـــالـــه بخبيئتي
وأريـــق دمـــع لعوائجى فيصير زهـــرا

- كنت أبحث عن سنبلة ضائعة بين القش.. سقط من يدي الفانوس، فاحترق البيدر.

- البيدر الذي احترق، أحرق السنبلة.. فنبتت من رمادها زنبقة سقتها دموع الرجاء.
- أحيانًا، يتمنى المرء لو كان أقل عمقًا.. وأقل طموحًا حتى يعيش في راحة وسلام كما بقية الخلق.. قد يحتفظ بأحلامه في قرارة نفسه، وقد يودع المشاريع ويتخلى عن طموحه، ويشرد أحلامه ليرتاح، فلا يرتاح.. وخزة الضمير ونفسه التواقة ومشاريعه وأعماقه، التي تناوشه تجعله يعيش في برزخ.. فلا هو قابل بالمتاح هانئ به، ولا هو زاهد فيما ليس بين يديه.. موت زؤام على نار هادئة.
- كل أحزانك تهب فجأة كريح عقيم.. وتتساءل: ما بالُ الشجر السامق قد اجتثت منه الجذور!؟ وما بال الورد معلق في المشانق؟ وكيف مات الجمان على نحورهم!؟

كل هذا الغرق.. وأنت تلعن الضفاف والمرافئ.

- أكثر ما يثقل الكاهل ويجهده، أن تصبح نفسك عبئًا عليك.. فلا أنت بقادرعلى أن ترعاها.. ولا أنت بقادر أن تتحرر من حملها الثقيل.
- السماء التي كانت ممتقعة؛ لوّح لها نجم السماء، فأغمضت جفنيها ممتنة لوميض زرع فوق شفتيها ابتسامة.. يا للرضا! كم يرتب بعثرة الغيم.. ويعلمه أن الهطول يبغي الكثير من

الصبر.. ومن الانتظار.

- تنفش الأحلام كما تنفش وريقات زهرة.. تنثرها نثرًا.. تنفض عنك المستحيل والوهم، وما بنيت لأجله قصورًا فوق السحاب.. تشمر على ساعديك وتستعد للغرق في سطحية الحياة.. فما تبقى لك غير الواقع بضراوته.
- الحزن المفاجئ وانقباض الصدر والضنك أحيانًا كثيرة؛ هو كما ارتفاع عدد الكريات البيضاء في الدم، لتخبرنا أن شيئًا ما في الجسم ليس على مايرام، وأن قدرتها الدفاعية والمناعاتية قد قلت.. يخبرنا بكل ما أوتي من تنغيص أن القلب قد ركن، وأن الهوى قد استعصم، وأن الرِّجل قد زلت، وأننا قد خنا العهد ونقضنا الميثاق.. ترشدنا إلى الرواء، وإلى جرعة استشفائية مستعجلة بناصية ساجدة، ودمعة متوسلة واعتصام بكرم الكريم وولايته وهدايته وحفظه وستره.. وسؤاله - سبحانه - الثبات والصون، وأن يصرف عنَّا كيدَ الشيطان وشر نفوسنا وشر كل ذي شر.
- قد تأتيك الأفراح متراقصة تخطب ودَّك في الوقت الذي كنت فيه تكنس شظايا الأحزان.. تلملمها كي تصنع منها تمثالًا شاهدًا على خيباتك.. تقف لحظة مندهشاً من كرم الكريم.. ومن هذا الهطول الذي جاءك بالضبط في وقت استسلامك وقلة حيلتك..

لك الحمد، ولك المنة، ولك الثناء الحسن.

- قالت: كيف أصبحت اليوم؟

قلت: أصبحت بحال من استبشر فكانت له البشرى، ومن تشوف للفرج واستنقذ النور من منافذ الضيق؛ فجاءه كرم الواسع - سبحانه - من حيث لم يَدْرِ.. ولسان حاله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾..

- متوتر هذا المساء.. أرعن.. والصمت يتواطأ مع الوجع فيقضم رموشي.. ويحتسيني.. قهوة بلا سكر.. أنافق الساعات والدقائق.. أكذبها حينما أوهمها أنني لا أعد دقاتها.. وأنني لا أرقب رِتَاج أبوابها أنتظرها أن تقفل.

- امتحاننا الأعظم مع الأمل.. أننا لا نريد أن نقتله.. وفي الوقت ذاته، نخشى أن نحييه.

- نسترق بسمة من شفاه الفرحة العابرة.. نغصُّ بها.. يكتب في سجل الوفاة: حالة تسمم.

- ليست الذاكرة - وهي تحاول التبرؤ من فتائل الأحلام - بأحسن حالاً منها، وهي تصارع الألم تود أن تقبره.. لم ينج من محاولات النسيان وجعٌ ولا أفراح.

- تتقن الأوجاع نكءَ الأوجاع.. ليت الأفراح تغار.

- لا تتركوا الشمس تجثم على أنفاس الندى.. ستبخرها.. أنقذوا الطلّ من لفحات لهيبها.
- وحتى تلك الأشياء الصغيرة البسيطة التي كنا نستمتع بها، صارت لا تروي الروح المجدبة، ولا تلأم شقوقها المتشعبة الغائصة في تفاصيل الهم الثقيل.. أهو الخريف العاتي يحفر خنادق الكآبة في هذا الكائن الضوئي المتزلف لخيوط النور؟ أم هو ذاك الغيم المتحين فرصة الانقضاض على بسمة الشمس؟ أم هي أرواحنا المتعبة الكليلة من أعباء حُمِّلتها - خانعة - فوق طاقتها فكان منها أن صارت تعيش على هامش الفرح.
- لم يكن خوفها حينها من أن تتألم، وإنما من أن تستعذب الألم وتستمرئ العذاب، وأن تفتقد الجراح، وتنتظر في شغفٍ جديد أخبارَ الوجع."
- سنحزن لا محالة، فلا نسترسل مع الأحزان، ولنشوش على القلب المكلوم بالاستبشار.. وسنضعف، تلك جبلتنا البشرية.. فلنجعل من ضعفنا مزيدَ قربٍ من القوي الغني الولي الوكيل سبحانه.. وستلزمنا بوصلات الحياة بتغيير دروبنا، وسلوك طرق ما وددنا - يومًا - أن نسلكها، ولا فكّرنا أن نكون لتلك المآلات، كي لا ننسى مهمتنا التي

لأجلها خلقنا: العبودية.. وحدها تنسينا هموم الحياة، وتذكرنا أن الذي شرفنا بعبادته - سبحانه - حرَّم على نفسه الظلم الذي نكتوي به من العباد، والخذلان الذي يصلوننا به.. والقهر والاستبداد والتسلط الذي يغرقنا في لجحه.. ولنعلم أن الراحة هناك.

- مترفون،

أولئك الذين ترهقهم الذكرى فتتسلل من بين نتوءات اللوعة، فيحنّون ويذرفون طلّ الأشواق حبرًا..

يبكون شوقًا، وتتوق أرواحهم إلى النوارس.. إلى السنابل.. إلى الدرّاق.. إلى طيف السنين الغافية في ظل الذاكرة المترعة بالحنين..

مترفون،

أن كان لهم فيء يستذرون فيه، ونبع يرتوون منه إذا ما الجدب استحكم ولم تجد سماؤهم بعقود الجمان.

مترفون،

لكنهم لا يعلمون.

- شتان بين من يؤزُّ - مراوغة - ذاكرته على نسيان ماض جميل قد ولى، فإذا به على الحقيقة - إذ يطلب التناسي - يتحايل

عليها كي تستقطع من حاضره لحظات تستوقفه في فيء الذكرى المترنمة بالجمال، ينسى نفسه في حضنها ويعيش اللحظات مرة أخرى، حتى إذا نزَّت عينه شوقًا وحنينًا كفكف وجنته وأقفل صفحة ذاكرته ولفها إلى حين موعد جديد مع شوق جديد.. وبين من تلتف حوله الذاكرة الموشومة بالألم تعتصره، يتحايل – عبثًا – عليها أن تبرحه، ويستجدي – هباءً – النسيان أن يتناسى، فإذا بثعابين الوجع تلتف حول عنقه، تمتص جفنيه، وتنفث سمَّها بين نتوءات الروح.

- لكم يوقظنا هذا الواقع.. يعلمنا بكل ضراوته أن نفرق بين الأحلام وبين الأوهام.. يجعلنا نكتفي – أحيانًا كثيرة – بما استرقنا منه على حين غفلة منه.. ثم نكمل المشوار بكل الواقعية التي فينا.. أو تلك التي أصبحت فينا.

- معضلة التعايش مع الألم ومع الحزن، وجعله يعمل فينا بصمت من غير محاولة أن نقاومه لأننا نخشى أن تبوء بالفشل = أن أرواحنا تعتاد على صولته وتستمرئ استيطانه فتستثقل الفرح، وقد نعمد إلى إضاعة فرصتنا في النشوة بأيدينا.. لا لشيء إلا لأن اعتناقها يعني – فيما يعنيه – أن

نبذل جهدًا لتغيير "المود" الذي استأنسنا به، وصار عنصرًا مهمًّا في حياتنا.. تمامًا كما الماء والطعام والأوكسجين.

- كل الرصانة.. وكل التؤدة.. وكل معاني الحكمة؛ تضيع في لحظات يصعب تصنيف الألم فيها.. أهو وليد صولة القرارات العاتية.. تلك التي تلزمنا أن نمتثل لما نتشدق به، وأن نحني الجباه لواقعٍ لسْنَا وحدنا من نحكمه.. أم صورة لثقب الروح وهي تُنزع.. أم لغربة تحملك من بين الجموع؛ كي تزج بك في سجن نفسك.

- وما الحياة إذًا بعد كل هذا الحصار إن لم نكن لنثق في حدسنا وأحلامنا، ونحسن التربص بالقادم الجميل!؟ بل وما الحياة وقد انفرطت أيامنا ماضيًا ومستقبلًا، وانتزعنا من سمطها مسمًّى لحظة آنية.. رفاتُ ألمٍ قد حاصرك.. ويومك قد أمضيته تقلب صفحات الوجع العتيق.. وحلم مصلوب في مشانق المستقبل لا تعلم إن كان لك منه نصيب.. جردتها من معنى الحاضر بإغراقها في الماضي.. وأتلفت متعتها بشنقها على مقصلة القادم الجميل.

- قد لا تتوقف الحياة بسبب حلم ضائع بين قصاصات الأحلام، وأمنية تائهة عن دروب الأمنيات.. سيسير القطار، والمركب الذي اعتاد على الرحيل سينصب شراعاته،

وسيسير وسيعبر كل البحار.. وستقذفه موجة لموجة.. سيقف مليًّا عند المرافئ، وسيكمل رحلته المتقلبة بين مد وجزر.. وسيسير.. سيعبر القطار كل السكك، وسيقف حتى في المحطات الفارغة من المسافرين؛ كي يثبت لهم أنه إن لم يحملهم فلأنهم قد تخلفوا عن الميعاد لا لأنه لم يقف بمحطتهم.. سيحمل على متنه أقوامًا، وسيُنزل آخرين.. وسيعبر كل السكك، وسيسير.. وستسير الحياة.. لكن شيئًا في الأعماق سيظل يكبح ذلك العصفور القابع في أعماقنا المتحين فرصة التحليق فوق الآكام.. فوق الخمائل.. فوق رؤوس التواقين لبذر الأحلام وزرع الأمنيات.. لا شيء سيوقف القطارات ولا المراكب.. ولن يحقق العصفور أمنيته في التحليق مادام مكبوح الجناحين.

- نظر إلى نهاية الطرقات وإلى الأرصفة الإسمنتية التي تحدها.. وننسى أن نستمتع برؤية الشجر على حافتها.
- لم يعلموا أن الحزن طريقة أخرى لإثبات الوجود.. وحدها نخسات القلب تذكر بأنه ما يزال يخفق، وبأنه مازال مرغمًا على إكمال أشواط الحياة.. ولم يعلموا أن الفرح، ذاك العصي، ذاك الباهت المتمنع، يمنع مرارًا استشعارَ ضعف الطيني المجبول على الفقر وعلى المسكنة وعلى أكدار الموصومة بالنقص وبالبلاء.

- نفس الكف التي تمسح دمعة قد أثقلت الوجنات؛ تزرع بسمة.
- إن لم يكن من متعة في الوحدة والغربة والاستئثار بالأشجان سوى الانفراد بالصمت وبلذة التفكير وببهجة أن تكون أنت دون أصباغ ولا أقنعة؛ فكفى بها متعة.. وما كان بسببها من ألم وكمد وحسرة على فوات؛ فتلك الشوكة التي يشاكها المؤمن، فيكون له بها تكفير الخطايا.
- أحرّ الدمع وأوجعه، ذاك الذي تضطر إلى أن تتوارى عن عيونهم كي تذرفه.. ثم تكفكف وجنتيك، وتصطنع القوة والبسمة؛ كي لا تربك عيونهم البريئة، وكي تقنعهم أنك – فعلا – بخير.
- أسوأ ما يمكن أن تصاب به عين، أن تفقد من ترعاه، وأن يجفل لذلك الدمع.
- لن يحسن مسح الدموع، سوى من يتقن إذرافها.
- أكثر من يبرعون في تحليل الآلام هم الغارقون فيها، وأكثر من يحسنون الحديث عن الأفراح هم مفتقدوها.
- كل الأشياء الجميلة تنتهي بسرعة، وتخلفنا للرتابة وللسأم.. كزهر البرتقال، يتضوع مع إطلالة الربيع.. ثم ما يلبث أن يفقد عبقه وسحره حتى قبل انتهاء الفصل.

- ما يتعبنا بحق،

أن نموت دهرًا.. حتى إذا ما أشرقت في أرواحنا الحياة؛ لم يكن لنا منها سوى ما للربيع من عبق زهر البرتقال..

ثم ننتظر في خنوع قدوم الخريف؛ كي نورطه في تهمة سقوط الأوراق.

- صوت الأمنيات الذي تردد صدى في بساتين الأحلام؛ ارتطم بأغصان شجيرات البرتقال.. فأردى الزهيرات قتيلة.
- أتحايل على القصيدة كي تعيد لطفولتي لحنها، وللقلب الحزين مراتع صباه..

تخبرني القافية أن أرجم القصيدة، وأن أغادر في صمت.

- كل أولئك الذين ظنوا أن الحياة ستستضيفهم ولو لبرهة؛ اكتشفوا - سريعًا - أن رواقاتها لا تتسع لهم.. لكنهم غنموا نضجًا ويقينًا بأن الاستغناء قد يعوّض في حالة العجز نشدان الحياة، وبأن الاعتياد على الترك كم من حوائج تقضى به.
- نحن في حاجة خلال رحلتنا إلى من يعلمنا الإيمان بالأقدار، ومن يعيننا على القبول بها والتعامل معها؛ أكثر ممن يعلمنا أبجديات السعادة ودروس الحياة.

- تحية إجلال وتقدير لمن يعلم متى يُقدم ومتى يحجم، ومتى يعانق الأحلام، ومتى يتبرأ منها.. أما أنت أيها المراهن على الفرح، يا أيها المتدثر بروحك الشفيفة، إذ تظنها تغطيك؛ تعريك.. لا منجاة لك منك إلا بالتخلص منها، أو بالكف عن نشد هفيف الأحلام.
- ولأنك مثقل بالأحزان حولك، منهك بالأحمال وبالأوجاع؛ فإنك لن ترى في الفرح أيضًا سوى عبء ثقيل لا تحسنه أعماقك التي دأبت على العواصف وعلى لون الرماد.
- بعض الحزانى يدمره الحزن.. فيتخلف عن الحياة، وبعضهم يربكه فيتبعثر الكون حوله.. وبعضهم يرتبه ويكتبه بمداد جديد، لكنه يقتات منه.. فإن أنت اطلعت على روحه، انتشيت، كمهووس بجمع التحف قد عثر على متحف عريق.. وإن تنظر إلى عينيه، فلن تخطئك السنون المنهوبة من عمره تطل عليك من وميضها المنطفئ ومن بقايا عطر قد مُحِل يوم أن سُجن الورد في الأقفاص، وعطلت طقوس استنشاق العبير.. بعض الحزانى أرواح تمشي على الأرض؛ فاحذروا أن تقيّموها بمقاييسكم المادية ومعاييركم السطحية؛ فتخدشوا رقتها وتفقدوا إلى الأبد مودتها.
- لا شيء، غير أن من يهرب في المزاح يتدثر به من خيباته في المجبولة على الأكدار؛ ليس أفضل حالًا ممن يُغرق الحزن في

الحزن، ويواري الوجع في مزيد أوجاع.. ستنتهي جرعة خفة الدم سريعًا، وستجلي الأحزان التي تنتظرك بالمحطة مرآتك التي اعتادت أن تخفي عنك ما يجب أن تراه.. وستنشد على مسامعك في تشفٍّ: نشوة لم تطل صحا القلب منها مثلما كان أو أشد عناءً.

- ستبقى في أعيننا قديسًا، أيها الفرح العابر - المستوطن.. تصنع الجنون، وتراقص الكلمات.. تعبث بالأحلام، وتركب الأمنيات خلسة تتوارى بها عن أعين المتلصصين.. وتنتشي أنك الفاتح، وتبتسم كلما تذكرت مدن الرماد.
- هذا الشجن الذي يهب فجأة، عميقًا متشعبًا، كأنه رسالة مجهولة من مراسيل الأحزان.. ينقض على الروح فلا يدرها إلا وقد غرز أنيابه في شغافها، ونفث سمه في الفؤاد.
- أكثر من يتحدثون عن الأشياء الجميلة، مفتقدوها.. وأكثر من يحسنون توصيف الأوجاع هم الغارقون فيها.
- تختار النجوم نهاية مشرفة تليق بها.. موتة هادئة في حضن السماء لا تبغي عنها حياة دونها.. ولو وعدوها بالنشور.
- بكاء الحزين مع الحزين ابتسامة.
- أعتذر لك أيها الشتاء.. لست أرحب بقدومك.. غيماتك تكدرني، ومطرك يبلل قطعة السكر التي أودُّ أن أغرقها في فنجان قهوتي.. يذيبها فأضطر إلى احتساء المرارة.

- لكم نحِنُّ إلينا.. إلى الانفراد بأنفسنا.. بآمالنا وآلامنا.. لكم نحنّ إلى أن نقبع في زاوية منسية نفك ضفائر الأحلام المعطلة، ونسرّح ذبالات الأماني المبتورة.. أن نسند رؤوسنا على أكتافنا، وأن نبكي في صدق.. أن نذرف دموعًا حرَّى دون أن نضطر إلى كفكفتها.. والتظاهر بابتسامة صخرية تصد عيون المتطفلين، وتكفينا همَّ أسئلتهم وإشفاقهم.. أن نستمتع بضعفنا، وأن تكون لنا فرصة إيقاف الزمان في لحظات نوم ممددة دون أن نضطر - كما كل صباح - إلى ركوب نفس الرحى لندور معها كما حمار الطاحونة.. أن يكون لنا الحق في أن نأخذ حقنا ووقتنا في الحزن دون أن نتذرع بما يحجب عنهم رؤية أجفاننا الذابلة.. أن نتنَصَّل من كل مسئولياتنا، وأن نقفل علينا أبوابنا على حين غفلة منهم دون أن نضطر إلى تبرير أو إلى تقرير. لكم نحنّ إلى الكائن المعطل الزاهد في المد والجزر في أعماقنا.. إلى ذلك الخامل الممدَّد على عقارب الزمان يشلّ حركة عبثه بنا.. لكم نحنّ..
- ستسافر أيها الحزين بحثًا عن منقذ من همِّك.. لتجد الحزن بالمحطة ينتظرك.. قد نغير الأماكن.. لا شيء يغير القلوب والأرواح.

- أن تجعل من كل لحظات الخيبة فرصتك لإعادة ترتيب أوراقك، والاطلاع على نفسك بشكل جديد، والانتشاء باستكشاف ما جدَّ فيها وما تغير.. أن تنظر إلى اللطف في أدق تفاصيلها ، وإلى ما مست به قلبك وربما دينك.. نستوعب كل مرة من الدرس جزءًا، وبعد كل تعلم نضطر إلى فتح صفحة جديدة إلى حين خيبة جديدة من خيبات المجبولة على الأكدار.
- الحزن ثقل ينوء الجيد بحمله، فهل كان الفرح ليمر خفيفًا لا يسرق الرمش من الأجفان؟ حمل الفرح أثقل من حمل الحزن، فشتَّان بين ما تنشد التخفف منه فيكون إن أنت قررت ذلك.. وبين ما تود لو يعمر.. وما التعمير سوى إيذانٌ بانتهاء الفرصة في الحياة.
- الأغصان التي جفت ذات خريف، تخلت عن رمسها لتلك التي تحتضر.
- لا شيء.. غير أن رموش الزهر الغافي قد تمايلت، فتناثر الشفق يربِّت على وريقاتها، يمسح دمعة كانت تتحين أن تسقي الأرض تحتها.. فانتعشت واستفاقت ونثرت عبقها حولها.. لا شيء.. غير أن العودة قد لا تنتظر الشروق.. وبعض استيقاظ قد يكون حين لمّة غروب.

- نقسو على أنفسنا حينما نمنعها أشياء صغيرة تمدها بالحياة.
- ماذا يصنع بنا تناسل الأوجاع؟ غير أن يكسبنا المناعة أمام جديد الأحداث.. من كثرة ما نندهش، لا يصبح لدينا ما نندهش له.. فنصبح كمعتوهٍ تتساوى لديه زغردة ودويُّ بركان.
- ويحدث أن تستنزفك صراعات الحياة.. تغالبك، فترفع رايتك البيضاء، ليس جبانة منك، ولكن لعلك تخرج منها لا لك ولا عليك..

يا للخنوع أحيانًا، ويا للتشرنق ولليأس مما نعلم أنه لا وجود له! كم يحقق لنا السلام الداخلي، وكم يعيننا على ترتيب الأحداث حولنا.

- ويحدث أن يتجاوزك التعب والإنهاك بالشكل الذي يبعثر كل أوراقك.. كم من جهد تحتاج كي تلملم شعث ما تشابك في أعماقك، وكم من جهد تحتاج كي تستعيد خطوك المستقيم على سابق مسارك.
- انتبه للثقب الذي في روحك، قد يُجَرِّئ عليك العابرين فيتخذونه مسكنًا.
- ولا نقول إلا ما يرضي الله استحملوا من يغتسل من الوجع بالبوح وبالدموع؛ كي ينبت من جديد كما تنبت الحبة في حميل

السيل.. رحمة من الله الدموع، والبث إنما هو للإله.. والحرف مزيد فضل؛ يفصد من الروح حظها من علقة الحزن، يغسلها في طست من حبر.. ومن عبرات.

- أولئك الراكضون في دروب الحياة، المعتادون على أن يحنوا رؤوسهم دون تطلع لنجم السماء.. المحبون للفوضى، بل إنهم ليمضون حياتهم غير ملتفتين لتبعثر الأشياء حولهم أو لأنهم وأنها في حاجة للترتيب.. وحدهم من يعيشون في هناء.. أما أولئك الذين يحبون أن يحلبوا النجم، وأن يتعطروا من مسك الأمنيات ورحيق الأحلام.. وأن يهزموا الفوضى ويعانقوا النظام.. فأنى لأرواحهم أن تستكين!؟

- الشمس التي قررت فجأة أن تتدثر بنسيج الغيم، وأن تحتجب خلفه ترقبك في صمت، احترم اختيارها.. استمد النور من جذوة مازالت مشتعلة فيك.. أو صكَّ ضلوعك بالأثير، واستنر بشرارتها.. أو ابتسم لإشراقة بسمة قربك تتحين لك أن تنير.. ثمة دائمًا حلٌّ فلا تغلق دونك كل الأبواب.. أو انتظر لعل شمسك تعييها رحلة التخفي فتعود إليك بوهج جديد.. صباحكم حلول.. إذا ماغابت عن أعينكم الحلول.

- قطرة فرح مستعجلة تقتل فيك الرغبة مرة أخرى في انتظاره.. خطوة لم تدرس لها حسابها فتهورت واستعجلت مخاصمة الحزن.. فما أنت بالفرح فزتَ، ولا بصحبة حزنك هنأت.
- نحاول رتق فتوقها.. فنثخنها ترقيعًا.. لا شيء يواسي السماء.. إذا ما يومًا غابت شمسها.. لا شيء.
- ألسنا من نظلم أنفسنا باعتناق الفرح ولما يحِنْ وقته؟ فلم نلومه إن خذلنا؟ لم نلوم عقم الشجر.. ونحن من استعجلنا القطاف؟
- اختر التحليق، أو أكمل المسير حسيرًا أسيفًا تتعثر في خطوك وتتعثر فيك خطوط السنين.. نُح بينهم أو تفرد بشجنك، واجعل تغريدتك خارج سربهم.. أنت الآن وحيدٌ، وإن عجت الساحات بهم.. مطرقًا سادرًا في وحدتك.. تبحث عن الأمان بين الخطوط المتشعبة المتشابكة أمامك.. لا شيء سيجعل رعشة الوحدة تبرحك.. لا أحد سيرغم الجناح المكسور على الطيران.
- البتلات التي سئمت الاحتضار، اختارت موتة جديدة تهدي لها الحياة.
- وإني لأغبط أولئك الذين يفتقدون ساعات فرح عنهم قد زالت، وأولئك الذين يصطلون بنار الحنين إلى حبيب كريم

واراه التراب، فتظل شفاههم تطيل المكوث بمقامات البسمة.. وهم يستحضرون أطيافهم، وأولئك الذين كلما تشققت أرواحهم من جفاف هذه الحياة المستقحلة، أطلوا على نافذة في أعماقهم فارتوت من عبق الذكريات.. وإني لأغبط كل ذي مخزون جميل في ذاكرته.. يهرع إليه كلما ضاقت به شساعة الحياة.

- وحتى تلك الأشياء الصغيرة البسيطة التي كنا نستمتع بها، صارت لا تروي الروح المجدبة، ولا تلأم شقوقها المتشعبة الغائضة في تفاصيل الهم الثقيل.. أهو الخريف العاتي يحفر خنادق الكآبة في هذا الكائن الضوئي المتزلف لخيوط النور؟ أم هو ذاك الغيم المتحين فرصة الانقضاض على بسمة الشمس؟ أم هي أرواحنا المتعبة الكليلة من أعباء حمّلتها - خانعة - فوق طاقتها فكان منها أن صارت تعيش على هامش الحياة.

- أتعلمين ما السعادة يا صديقتي؟ تلك الأشياء التي كان من المفترض أن نعيش لحظتها الآن، لكننا أغرقناها في العبث أو التسويف أوالتخطيط، وكأننا سنعيش الدهر كله.. نركض ونركض ونخطط - إذا ما خططنا - للحظة مجهولة في المستقبل، لا نعلم إن كان العمر سيسعفنا لنبلغها ونحتفل بالطلع.. وحتى وإن بلغناها، فهل كنا سنعيشها بكل عنفواننا وقوتنا وبهجة شبابنا؟

- أن ننبت من جديد.. يعني أن نمارس طقوس الفناء أولا.
- ويا شمس الخريف المتدثرة بنسيج السماء.. الماثلة بين أسمال العتمة.. المتحينة إشراقة من عادوا من رحلة الغياب؛ كي تتخضبي من جفونهم بنور يواري تفاصيل الجفاء.. يا أيتها الكريمة السخية التي ما أرهقها يومًا التفاني والعطاء، وما فتئت توزع نورها ودفئها على كل جائع للحنان.. يا أيتها الشمس، استوطني هذي الجفون وفي الخافق وخلف الضلوع.. ودعي البسمة الشاردة تلملم متاعها وتسجل عودتها فتستوطن في الأحداق وفي الشفاه.
- كلوْنِ الموت في وجوه الفقراء، يرتمي النهار بين يدي السحاب المفرغ من الشمس.. في يومك يا مايو الحزين إذ تذرف بقايا الربيع هطلًا تنسج منه مناديل الوداع.
- ولأجلك يا أيها الألم المستوطن الجاثم فوق صدري، المتلبس بروحي، الساكن بين دمي وأديمي.. لأجلك أيها الوجع الخائف من الوحدة والشرود، المحتمي بين ضلوعي من الذئب الذي يأكل من الغنم القاصية.. لأجلك قررت تدشين دستوري وتدوين فلسفتي الجديدة في الحياة.. وما أفعل بأيام تتسرب، باهتة مكرورة نمطية، من بين يدي؟ سأجعل منك لها لونًا ونكهة تحميني بها من التكرار المُمِل والرتابة المميتة.

- كم تبدو غريبًا أيها الحزين وأنت تبوح بحزنك، وكأن الحزن عندهم لم يكتب إلا على من يبوحون به.. كم تبدو لهم مريعًا! وكم يبتعدون عنك كمتوجس من العدوى أن تلحقه.. وكم تبدو سطورك مجردة من ذلك الذي ما يفتأ المائجون في لجج الحياة يسبحون بحثًا عنه.. وقد لا يصلون إذ أرادوا بتر الألم بتجاوزه ومحْوه بإخفائه وتفاديه بالتعالي عليه.. حتى إذا ما اجتمعوا يومًا بأرواحهم، واختلوا بها برزت لهم أنيابه وصادفوه حيث لم يتوقعوا مصادفته ولا تهيئوا لها.. وهل الروح إلا حزن عميق يخرج تارة في هيئة بسمة وتارة في هيئة دمعة؟ وهل الحزن إلا معدن الروح الشفيفة المتجردة من دثار المجاملة والتربيت والهروب؟
- هو الألم العاتي المتجبر، يفرض تسلطه ويحاول الفتك بنا.. ولأننا خلقنا في كبد، فما زلنا ننازله.. ونحاول الانتصار عليه، فتارة تسوّل لنا أنفسنا أننا قادمون من زمن الصحابة والسلف الصالح، فنتلبس بأقوالهم عسى الحال يتشرب من المقال، ويخيل لنا أننا قادرون على هزمه بالتعالي تارة.. وبسجود قلوبنا لمقلب القلوب، وتارة تتخطفنا بشريتنا، ورُزُوحنا تحت أغلال الضعف، فنركن له.. (وخُلق الإنسان ضعيفًا).

- فيا أيها الفرح، ادخل علينا من أبواب متفرقة، وضعْ صواع الأمل في رحالنا لعلنا نصبح أسراه، وأوف لنا الكيل، وزد وتصدق علينا، وارْو أرواحنا العطشى للبسمة وللرجاء، وارم علينا قميص البشارة نرتدد بعد طول هَمٍّ سعداء، وأخرجنا من سجون أنفسنا الضيقة الكئيبة الغرقى في لجج الضعف والحزن والهوان، وآونا إليك، وارفعنا على عروش المحبة والأمان والحنان والثقة فيما عند الكريم المنّان.
- نحتاج إلى أن نمنع الأحزان من التفشي بمجرد شعورنا بأنها بدأت تتسرب، وبأنها بدأت تنمو لها رؤوس كما رؤوس التنين.. المقاومة حينها ستكون أبسط مما لو تركناها حتى هيّجت علينا الأوجاع، وجمعت علينا كشكول القديم والجديد.. حينها تتسرب الكبة، ويصعب علينا العثور على رأس الخيط وتفكيك شعث ما تداخل فيها.
- أليس من العتَه أن ننتظرها أن تصفو؟ لم تصْفُ حتى للأنبياء خير الخلق.. إنما هي كالضلع الذي خلقت منه المرأة، إما أن تستمتع بها على عوجها، وإلا فلا تنتظر أن يستقيم الضلع.. وكل محنة بأجر، وكل أزمة بمزيد حنكة وحكمة.
- نبش قبور الألم جريمة في حق أرواحنا.

- فرق بين أن تتحدث عن الألم وعن عبادة انتظار الفرج من خارج الحدث، وبين أن تُوَصِّف الألم وأنت فعلًا تتألم، وتتحدث عن الرجاء واليقين، وأنت فعلًا تؤمل انكشاف الغم وارتفاع البلاء.
- فيا أيتها الشدائد، أبيت إلا أن تخرجي المعادن والأضغان وفتائل الإيمان.
- المطر والدموع، اغتسال للقلب الحزين، ورواء للروح الظمآى.
- وأعتى السجون، حين يكبل الألم القلمَ.
- كل ما نريده من حياتنا الموحشة المقفرة؛ جرعة سكينة لا يبددها خوف ولا غفلة، ولا تعتريها فوضى ولا شرود، ولا ينغصها ضجيج ولا انتكاسة،

وبصيص أمل..

والكثير الكثير من الأمان.. ومن الأحلام.

- سأحصد السنابل هذا الربيع.. يانعة..

قبس من أوار الروح كفيل بأن ينضجها.

- الحزن أحيانًا طاقة عارمة، تجعلك تفجر كل مكنونات الصدر، وتنفث كل الوجع وكل الظلم الذي تحس به، في دعاء صادق مُلِحّ لا تتخير فيه الألفاظ ولا تنتقي فيه المعاني،

إنما يخرج بتلقائية وعفوية تمليها حاجتك واضطرارك، وكل معناه احتماء من ضعفك بكلأ ربك، وانتقال من حولك لحوله وقوته، وتفويض لكل أمرك للولي الناصر القدير.

- من لا يفهم معاني الفرح، فلن ينتبه - أصلا - إلى أنه في حاجة إليه.
- لكم أشكرك أيها الحزن.. علمتني أن الدنيا دار كدر، وأنما الراحة هناك، حيث السرمدية.. لكَمْ أشكرك، فقد علمتني أن أعلق قلبي بالذي لا تنقطع عطاياه، ولا تنضب مِنَنُه سبحانه.. وأن أرى بعيني الضعيف الكَل على مولاه لطفه - سبحانه - الملازم للقضاء.. فاللهم لك الحمد على ما قضيت، ولك الحمد على لطفك ورحمتك ومنَّتك.
- إنما جعلت الدموع لتغتسل العيون وقبلها القلوب.. لتبرر للقلب مرة أخرى، بتلك الفلسفة البريئة البسيطة أنه حي يرزق، ورزقه ألم وأمل.. محطة تنقية وتصفية.. فأما الزبد فيمضي جفاء.. تُثَوِّره وليدات الجفون.. وأما ما يحييه ففي القعر ساكن تمده من بعده بحارُ ثقة، واستكانة وخضوع.
- أراد يومًا كاتبٌ أن يكتب عن الفرح، وهو الذي كان ينجب الحزن وينجبه.. فقرر أن يقبر كل قصائد أوجاعه، وأن يحفر للألم خنادق النسيان، وأن يشيد مملكته الجديدة على

ضفاف جنان الفرح.. فأفلح في تناسي كمٍّ من أحزانه، وأقام سرادقات العزاء في ألم كاد يفقده الحياة.. وأخبر كل من جاء يسليه ويعزيه أنه قد تاب من نبش القبور.. وكطفل كان يحبو، فلما تعلم الخطو استعجل الجري قبل أن يتعلم أبجديات المشي، صار كاتبنا يسعى بين حروف اللذة، ويطوف حول عبارات النشوة، ويطيل الوقوف في مقام الفرح، ويرجم بين هذا وذاك شيطان الحرف الأسود بحجارة من نور ملكت عليه قلبه، وتأثرت بردائه الذي صار نورانيًّا مذ عافت نفسه الدنيا.. وكبد الدنيا وخداج الدنيا.. ومذ اهتز قلبه المرهف الرقيق لمعاني الود والصفاء.. كاتبنا نجا بأعجوبة من براثين الحزن المحبط.. لكن شيئًا ما يكبح فرحته.. ما زال ينتظر فرحة كبرى؛ كي يكتب - فعلًا - عن الفرح..

ومازال القلم سيقطر حزنًا، مادامت ساعة الفرح الكبرى لم تأت بعد.

- ربما نحن لا نحتاج إلى أن نوقف عقارب الزمن كي نسرق سويعة فرح.. تعايشنا مع الألم ومع الأحزان يكفينا همَّ التوقف.. وهمَّ اعتناق السراب.. وهمَّ السباحة ضد التيار.
- صلاتك على مضغة يعقوبية الحزن؛ قد ابيضت من الكبد ومن الأوجاع غاب سناها، لكن شكواها لمن قضى وقدر؛

فجفت الصحف على ما دهاها.. أيوبية الصبر وبحسن الذكر والتذلل تشكو ضرها لمولاها.. ترجو بالدعاء فوزًا بالعطايا، وبما يقيها فجورها ويلهمها تقواها.. آدمية الضعف لكنها لم تجعل من الزلة مجراها ومرساها.. سليمانية الأوبة كلما وقعت لاذت بمن يقبل توبتها، ويستر عيبها ويحسن مأواها.

- ستجتاحك الخيبات، وسيستبد بك الخذلان.. لتنحسر فيك الحياة ويتوقف فيك النبض.. أو لترفع سقف تطلعاتك فلا تقبل إلا بالمعالي، وما يقدر فيك ذاك النضج الذي أكرمتك به متاهات الحياة.
- الوجع المركب، ذاك الذي يضطرك إلى أن تقنع من حولك به، فتفشل.
- الحزن في بعض الأحيان كره لنفسك؛ لأنك تمسكت بالشيء الخطأ.
- حينما ينسم العبق القفار، ويرسم القمر بسمته فوق جبين الساهدين.. ويرسل الشفق وهجَهُ للخدود العطاش، وللقلب المقفر الراقد بين أخاديد الاغتراب.. والماء الآسن يصبح مَعِينًا.. ويبتهج القلب الحزين.. يودع خنادق الوجع.. ينتشي بأغاريد العصافير المخملية.. يستنشق شذى الورود.. يحطم كل السجون.. يمزق كل قصاصات الألم، ويعد نفسه بالغد

الجميل المفعم بالأفراح.. حينها، اعلم أنها نفحة رجاء قد خالطت قلبك، ونسمة يقين قد داعبت روحك.. أو دعوة ملحة في جوف الليل تملقت فيه مولاك قد استجابها الله ولو بعد حين.. فلك الحمد أنت الوهاب، ولك الشكر أنت المنان، ولك الفضل والمنة يا ذا الجود، الكريم الرحيم اللطيف.

- بعض الأحداث الموجعة لا تحتاج إلى مبالغة في وصفها، فهي في حدِّ ذاتها مبالغة.
- أهون ألف مرة..

أن نذرف سيول الدموع الحرى، وألا نحتمي بابتسامة مغلفة خلفها اعتصار قلب والتياع كبد، وأنين تردد صدى في سراديب صوت أبكمه الوجع.

- حينما يأسرنا الوجع ويستهدف نضارة عمرنا..

يجعلنا نبتلع الأشواك.. نسكب الدموع حرفًا رماديًّا على الورق..

نرنو لسنين عمرنا التي انفرط سمطها، فلا نرى غير حزن جاثم على أنفاسنا

وحلم وردي يموت على الشفاه.. حينها فقط نشتاق إلى الجنة حيث لا وصب ولا نصب.

- ما أصعب أن يكون ذلك الذي كان يعيش الحياة بأدق تفاصيلها أصبح يعيش بمحاداة الحياة.
- قلت لها: تعلمي ألا تتألمي.. لا شيء يستحق.. أنهيت حديثي إليها، ورجعت إلى نفسي أصحح خطأً وقع مني سهوًا، وقد أخذتني الحماسة والحمية لصديقتي الموجوعة.. بادرت أصحح: تعلمي كيف تتألمين.. تألمي بصدق.. فدروب الحياة الممتدة الطويلة تحب الصادقين حتى في ألمهم.
- الدنيا سجن المؤمن.. فما الفرق بين أن يكون السجن بين جدران زنزانة، أو بين شِعب الشريان، أو في كهوف قلوبنا المترعة بالأحزان.
- تابعتُ في فضول حركاتها العشوائية وهي تبحث عن شيء بين ركام محتويات حقيبتها اليدوية.. أخرجتْ بطاقة وقلما، ووقَّعتْ خلفها باسمها.. سلمتني هديتها بابتسامة واثقة : - خذي، هنا تجدين عنوان مركزي الجديد، قد أوصيتهن أن يحسنَّ التعامل مع زبوناتي حاملات مثل هذه البطاقة.. ستحصلين على ابتسامة أجمل؛ فنحن متخصصات في تبييض الأسنان.. امتدت يدي في ذهول أقبل الهدية المعروضة من غير تردد.. وهل كنت لأتردد وأنا - أصلا - لم أفكر.. أليس التردد وليد تفكير؟ شكرتها على هديتها وانصرفت..

ابتسمت في أعماقي رغمًا عني من ذلك الرد الذي وأدتُه على شفتي، وهو في طريقه إليها: - أليس لكم من مركز لتوزيع البسمات؟ اعطيني البسمة، واحتفظي لنفسك ببياض الأسنان.. البسمة برأها ربها جميلة في كل الأحوال.

- وإني لألمح حزن الآخرين، أستشعره.. ينساب إليّ من حرفهم ومن صمتهم، ومن غيابهم، وحتى من شكل بسمتهم ونبرة ضحكتهم.. ذاك ما جنته علي مؤاخاتي له.. أن تعديت إحساسي بنفسي، وصار لي حدس في الآخرين.

- وبين الفرح وبيننا خطوة، كلٌّ منا يتربص بصاحبه، وينتظر من يتخطاها، ويقتحم حمى الآخر.. ولأنه كريم سخي يحب الإيثار؛ فقد ترك لنا شرف السبق، وانزوى يراقب في صمت خطانا المتعثرة التي أخطأت طريقه.

- أو ليس الصدّيق كان أسيفًا؟ وسيد الصبر قد ابيضت عيناه من البكاء؟ فلم تطردون الدموع.. وقد حطت بالقرب كفراشة مستأنسة شدها العبير؟ لم تطردون الرحمات؟ لم تقتلون ببرد مشاعركم في القلب الحياة؟ دعوا الدمع يحمل عن الحرف أثقالًا تنهك الحرف.. دعوه يحكي عن ذاك الذي بعثر سمط الكلمات.. دعوه يرتب الفوضى في أعماقنا، ويذكرنا بأنه مازال فينا نبض الحياة.

- وأعتى الجراح، تلك التي كلما ظننت أنها اندملت أبت إلا أن تنخر من الأعماق.. وأعتى الآلام تلك التي لا تستطيع البوح بها لأحد.. حتى لنفسك.
- أكثر الأشياء التي يحزنك فقدها، تلك التي لم تحصل عليها بعد.. ولن.. تلك التي ما يجديك سوى أن تكفكف دموعك.. وأنت تودّع طيفها قبل أن تلمس كفيك.. تلك التي تعلم أنها لن تلمس كفيك.. وأنك إنما تمني نفسك بها تشغلها عن اليأس بالأوهام.
- تلك النار الخامدة.. توريها نفخة حرف.
- سبحان مقلب الليل والنهار، مقلب أحوالنا معهما. نمسي في ضنك ونصبح في انشراح.. ونظل في عافية ونبيت في ألم.. اللهم فقلّبنا في طاعتك، والرضا بأقدارك ما قلبت الليل والنهار.. وما تقلبت قلوبنا بين ثنايا المجبولة على الأكدار.
- وبعض الحزن نيران موقدة تلهب الأحشاء.. هو عتاب وجلد، وربما كره لنفسك لأنك تمسكت بالشيء الخطأ.. لا يطفئها سوى إرجاع الأمر للقضاء والقدر، ولا يعيد لها السكون والطمأنينة والرضا سوى تذكيرها بأنها قد استخارت العليم القدير.. قبل الإقدام وقبل الإحجام.

- فجأة تقرر أن تكون سعيدًا.. تلملم كل قصاصات الوجع كي تمزقها.. تحرقها.. تنثرها وراءك.. تحدق فيها في محاولة لإلقاء نظرة الوداع على حروفها الموجعة بإتقان.. تحاصرك الفواصل والسطور، وتنقض عليك ما وراءها.. تحاول الفكاك لكنك تعلق في شباكها.. ترجئ قرارك. ليس بعد.. فلتنتظر السعادة، ولينتظر قرارك.. ثمة جراح لا يمكن أن تخيطها قبل أن تنظف.

- وأعتى السجون أن تظل وفيًّا لذكرى الألم.. تراود نفسك أن تنسى فلا تنسى، وتتحايل عليها أن تندم فلا تندم.. فلا أنت براحة النسيان نعِمْت، ولا بجلد ذاتك وتقريعها قد هنأت.

- أحيانًا يكون جلد الذات مؤشرًا على أنه كان في ذلك الألم ما يُختار، وبأن السماء لم تكن ملبدة تمامًا بالسحب، وبأن الاختيار ربما كان غير منطقي أو متسرع.. لكن أن تسعى فعلًا للندم فلا تجد علام تندم، وأن تحاول جلد ذاتك فلا أثر لما يجب أن تجلدها عليه، معناه أن القرار سليم، لكن الألم متجذر والوجع متأصل.

- وأكبر الألم أن نحاصر أنفسنا به، وأن نعيش في شرنقة الماضي ونسيج الذكرى الحزينة.. نحن لا ننسى - جبلة - بل إن الألم قد يتقافز أمام قلوبنا حتى في لحظة السعادة وتحقيق

الأمنيات.. لا ننسى، ولسنا في حاجة للنبش حتى تطفو الأحداث المؤلمة.. هي لا تفارقنا؛ لذلك كان من العقل والحكمة التعايش معها.. كما جرح في اليد نضمده، ولا تنسينا آلامه أن نقوم بمصالحنا وأن نرتب أمورنا في وجوده.. حتى في الوضوء قد شرع لنا المسح عليه أو التيمم عنه لا ترك الصلاة أو الطهارة لأجله.

- ويحدث أن تخشى لقاء نفسك، فتهرب منها هروب ظمئ من الهجيرة كي لا تجلدك ولا تجلدها.. فإذا بها تتضوع حنانًا ورفقًا بك.. تفتح ذراعيها لك كي تئوب إليها.. تربت عليك وتمسح عن عينيك حزنًا وكمدًا كادا يقتلانك.. تفتحهما على القادم الجميل.. حوار شفيف معها لحظة ترنح مُنتهٍ بصفاء، ثم بعدها تنزل عن صهوتك العتيدة تلملم الغنائم توصيات:
  - ربنا رب كريم حيي، يستحي أن يرد يدًا مُدت إليه.
  - يرزق حتى الكافر أفلا يكرم دمعة سقت الأرض تحت جباه الضراعة؟
  - لم تنته الحياة بعد.
  - الحزن يشكلنا كما يريد هو.. ويمنع عن قلوبنا الاستكانة، وعن عقولنا التفكير.
  - راية التحدي لا تعترف بالانتكاس.

- لن تموت حتى تستكمل رزقك.
- رزقك لن يأخذه غيرك فطب نفسا.
- ما ليس من رزقك فلا خير لك فيه.
- التحدي متعب.. لكنه جميل.
- الروح التواقة لا تستكين.
- الحل الحقيقي ذاك الذي لم تجربه بعد.
- الحرية.. منهج حياة.
- ثقتك بالله وبفرج الله؛ سكينة قلبك ومبلغ أمانيك.
- ثقتك بنفسك رأس مالك.. فلا تقطع حبل وصالك بك.
- وتستمر رغم كل شيء الحياة.
- ستورق.. بفضل مخرج الخبء.. وستتضوع من عطرها.. ذاك ظننا في الكريم سبحانه.
- رُؤيَتُنا وتُؤَدتنا وأحلامنا المخملية "أقوى من الرصاص"..

إلى صديقتي..

- تعلمين يا صديقتي؟

لوددت أن أكون بالقرب منك.. لكنني أخشى عليك مني؛ فالقلب الصبي الذي عهدتِه مرجًا للفراشات وخميلة للرياحين، قد صار مثخنًا بالجراح، والشوك الذي عاث فيه أخشى عليك منه أن يدميك.. لوددت أن أكون بالقرب منك.. لربما استعدت طفولتي بين يديك، ولعل بعضًا من الجراح تبرئها نسمة من نسمات الصبا على كتفيك.. ولعل رجفة الحنين تبرحني.. مازلت بريئة - كما عهدتني يا صديقتي - إلا من ذنوب لطخت طهر البراءة فيّ.. صادقة وفية كما عهدتني.. لكن كثير وفائي وصدقي صار للوجع الذي بات يسكنني.. مرتبكة أنا يا صديقتي.. حائرة مترنحة.. لا أعلم إن كان بمقدوري الآن أن أمسح دمعة من عينيك دون أن أضطرك إلى الاغتسال معي بدموعي.. لا أعلم إن كانت نسائم الفرحة وتباشير البهجة للقياك - تمامًا كما كنا نفعل، ونحن توائم الزهور، فنتحايل على أمهاتنا كي نلتقي، وكي يطول اللقاء بيننا - لا أعلم إن كانت الآن ستحمل

معها عبقًا من الذكرى الغابرة، ورشفة من رشفات الطفولة دون أن تلوَّن بلون الشيب في قلبي ودون أن تصاب بعدوى الكآبة.. مرتبكة وحائرة و أخشى عليك مني يا صديقتي.. لكنني مستعدة لمطاردة الفراشات في شريانك، وتنسم شذى الجوري بين رموش جفونك.

- أتعلمين يا صديقتي ما أجمل الأمنيات؟ تلك التي توصدين عليها أبواب فؤادك، وتحكمين عليها بين معاطف عينيك الإغلاق.. تلك التي كانت لك ذات موتٍ عجبَ الذنب منه قد عادت فيك الحياة.. تلك التي لا تملكين سوى أن تغمضي عينيك لذكراها كي تطردي عنها رحى النسيان، وتنتشي أنها رغم كل شيء هنا.. باقية هنا.. صامدة رغم الزلازل ورغم الأعاصير ورغم البركان. كم ترغمنا دروب الحياة على التخطيط وحسن التدبير والتريث يا صديقتي.. وبعض أمنياتنا لا يجدي فيها سوى الجرأة والجسارة والجنون.. والتبرؤ من التردد، ومن كثير رزانة، ومن كثير تفكير.
- أتعلمين يا صديقتي ما الذي يؤجج اللوعات؟ تلك الأمنيات التي نغادرها لا لزهد فيها، ولكن لأن خرم الإبرة العنيد ما يطيق مرور الإبل.. تلك التي نرمق طيفها يداعب منا الخيال، حتى إذا ما قررنا أن نسجنه بين الجفون،

تسرب كنسيم راحل من نتوءات الروح وتجاويف الفؤاد، ومن تفاصيل الشريان.. ما يجديك - حينها - يا صديقتي سوى أن تسقي طيفَها ملح المدامع.. ثم تكفكفي وجنتيك، وتتابعي غيضها في رمس النسيان.

- أتعلمين يا صديقتي ما الذي يجعل الحياة تنتهي فينا؟ ليس الاستكفاء ولا خوف الاقتحام، ولا حتى التعطيل أوالتسويف، أو التريث في اعتناق الحياة.. إنما تنتهي الحياة فينا حينما نقرر رغم كل شيء أن كل شيء فينا قد انتهى.. وأن ما ارتحل فينا لا فرصة له أن يعود.. وبأن الأحلام قد تطردك.. قد تخليك منك، وقد تعودين منها - إذا ما عدت - بكيان مشوه ووجود مبتور.. وبأن مدَّ العين لزهرة ما ترتاح له النفس وتسكن به الروح، جرأة وجسارة.. ولعب مرتجل خلال "الوقت بدل الضائع".

- تعلمين يا صديقتي ما الذي يجعلك سعيدة رغم كل ما يطوقك من أحزان؟ أن تكوني شفيفة الروح، متناغمة مع نفسك، عالمة بعيوبها ومزاياها.. واقفة على حدود ما هي أقدار يمتحنك بها المولى، ويختبر رضاك عنه وعنها، وما تستطيعين تغييره واستكمال نقائصه وجبره من روحك الشفيفة وحسك العالي، ونضجك النفسي والفكري.

- كل ما أود أن تعلميه يا صديقتي، فقط كي تطمئني علي.. أنني مازلت أنظر كل مساء لنجم السماء، أتخير لنفسي الأرائك بين أحداقه، وأرشف دمع المساء أحيله شهابًا قبسًا.. وأن تلك الأسطورة التي ما ارتضيت يومًا غيرها، سيكتبها - على مهل - حرفي العنيد.. مازلت وفية - يا صديقتي - لعبق الألق، ولشذى الرقي وللعلياء.. و لولاها؛ لكتبت قصائد ندبتي وقوافي رثائي ،ولحفرت بأناملي رمسي.. ولاستقبلت فيّ العزاء..
- أتعلمين يا صديقتي؟ يا من كنت يوما صديقتي ؟ أن أفتقد مواساتك وعزاءك وقد علمت بمصابي، فتحجمي عنها وتبخلي بكليمات لن تعيد ما فُقد، ولكن تضمد الفؤاد المكلوم، وتشعرني أنك - رغم كل شيء - بالقرب في الأحزان قبل الأفراح؛ يحرجني أكثر مما يمكنه أن يحرجك، ويزيد نقطة في بحر أوجاعي منك؛ أنني أخطأت الحسابات، وجعلتك يومًا للفؤاد النديمة، واعتبرتك شقيقة الروح.. أن أفقدك يا صديقتي حيث لا يجب أصلًا أن أبحث عنك، وأن أجد نفسي مضطرة إلى أن أفصح لك عن حاجتي إليك أحوج ما أكون، ضربة مكسرة لنظاراتي ناقضة لفلسفتي في الأمر.. هي أشياء يا صديقتي لا تُستجدَى بحال.

- أتعلمين يا صديقتي ما الذي يؤلم الباذلين؟ أن يمنحوا نثار أرواحهم، وأن يهدوا الشغاف والشريان وماء العيون.. ثم يضطروا بعدها إلى أن يستردوا كل العدة.. وأن يمضوا دون أن يلتفتوا.
- أتعلمين يا صديقتي ما الذي يؤجج حنقي؟ أنك عرفتني.. وما عرفتني.
- أتعلمين يا صديقتي، يا من كنت صديقتي، ما الذي يجعلني مصرَّة على ممارسة العمى؛ كي لا أرى منك ما علي أن أراه، وأن أنتحب وأنا أقص وريقات روحي أنثرها بين يديك؛ كي أخبرك أنني رغم كل شيء هنا.. مازلت هنا؟ ألا أضطر يومًا إلى أن أستفرد بصورتي؛ فأجدني مرغمة على بتر جزء من ذراعي، وأنا أقص طرفًا لم يعد البرواز مهتمًا بوجوده.. ومرغمة على أن أجعل الذكرى بنصف وجه.. ونصف ذراع.. ونصف حقيقة.. ونصف صورة.
- ستحاولين أن تسكِّني القلق يا صديقتي، وأن تخدري الأشواق، وأن تعتنقي الصبر، وأن تفتعلي أنك هادئة مستكينة.. قد تنجحين، لكن هبة من نسيم الصباح المنكهة بسحر المساء تؤرجح كل خططك.. أنت المسكونة باليتم حين الغياب، وبالثكل حين الحضور.. أنت العابرة المستوطنة في

الأراجيح التي تشبهك.. من لم ينج من الحضور يا صديقتي؛ لا ينجو - حتمًا - ساعة غياب.

- أتعلمين يا صديقتي؟

عليك أن تنتقي وهمك بعناية أكثر.. حتى لا تضطري يومًا إلى أن تلفظيه أو إلى أن يلفظك.

- أتعلمين يا صديقتي من أتعس المُزْنات؟ تلك التي تظن نفسها خالدة.. رحلة سرمدية للرواء.. تنعش البساتين الغافية وتبهج القلوب المجدبة.. فإذا بها مجرد غيمة.. غيمة تشتاق إليها قلوب.. وتنفرها تلك التي تحزنها ظلمة الشتاء وتكتئب لرؤية المطر.. أو تلك التي لا تفهم أبجديات الرواء.. مزنة عابرة كما كل المزن تحمل ماء كما يحملن.. لم تتفرد بحمل ياقوت ولا زمرد ولا عسجد.

- لا تحاولي يا صديقتي، يا من كنت صديقتي؛ فك ألغاز حرفي العنيد.. محاولاتك كلها ستبوء بالفشل.. لن تفهمي اليأس الذي أتحدث عنه حينما أتحدث عنه.. ولن تفهمي ما أقصده بالنجاح ولا بالطموح، ولا بوأد الأمنيات الوليدة كل فجر..

لا تتعبي نفسك يا صديقتي؛ فالحزن الذي أتحدث عنه.. وتخضل به كراريسي ليس كما باقي الأحزان، ولا يشبه معناه الذي تعرفينه في شيء.. والفرح الذي يهب فجأة، فيلوّن يومي

أو ساعتي بألوان الورد.. لن يفهم معانيه من يؤمن بسطحية المعاني وتصنيع المشاعر، ويتقن تقمص الأحاسيس.. لن تستطيعي أن تمسكي بحرفي الزئبقي المتفلت كقطعة صابون في يدٍ مبللة.. ولن يتمكن عقلك البسيط الذي اعتاد على منطقية الأشياء أن يستوعب تقلّبه وتلوّنه وتمويهَه لمن يتحسسونه..

أشفقي على نفسك يا صديقتي - يا من كنت يومًا صديقتي - من هذا العناء.. ودعي عنك ملاحقة السراب خلف حرفٍ عنيد يأبى على نفسه أن يكون واضحًا.. أن يكون واضحًا لك أنت بالذات.

- تعلمين يا صديقتي أنني أخطئ؟ لا تحدقي في هكذا، وأغلقي فاكِ المصرع، وافتحي عوضه أذنيك.. نعم يا صديقتي، هذه هي الحقيقة المُرّة التي ستتجرعينها منذ حديثي إليك الآن، وستصاحبك ما ظلت ذكراي تعبر روحك، وستجعلك تفكرين ألف مرة قبل أن تنظري مرة أخرى إلي.. أنا أخطئ تمامًا كما يخطئ كل البشر، وأضعف تمامًا كما يضعف كل البشر، أتمرد أحيانًا.. وأحيانًا كثيرة أستكين.. أكتب دواوين حكمة ورصانة، لكنني متلبسة أيضًا بالنزق وبالرعونة، ومعرضة أحيانًا كثيرة إلى أن تهجرني الحكمة، فأتصرف على سجيتي.. وأتصرف بغباء.. وأصبُّ الزيت في المحابق

عوض أن أصب الماء. تعلمين يا صديقتي أنني أيضًا أستشير في أمري، وأنا التي ما فتئت أشير على الناس حولي؟ تعلمين أنني - أيضًا - أقف مصلوبة أمام أنصاف القرارات وأنصاف الطرقات، أستجدي من حولي ألا يضنوا علي بفتيلة أو فانوس أو بوصلة توضح لي معالم الطريق؟ ضعيفة أنا يا صديقتي، رغم كل القوة التي تبهرك فيّ، طفلة رغم كل النضج الذي يدهشك.. متناقضة، رغم كل التوازن الذي ما تفتئين تمدحينني به.. أنا - يا صديقتي - ما زلت أستمد قوتي - من بعد حول الله - من الكلام.. من ثرثرة تثبت لي أنني مازلت على قيد الحياة.. وأنني لا أخجل من كل أعراض الهيستيريا التي تصيبني حينما يتسرب الكلام مني ككبة صوف منكوثة.. وإني لأعشق تلك الحالة الفريدة التي تشبه الشيزوفرينيا، والتي تنتابني وأنا أصدح وألوم وأعاتب، وأعترف بضعفي، وأعلن قوتي، وأصنف وأخطط وأقرر، ثم أرجع بعدها أبتسم وأمزق في لحظة ابتسامة كل القرارات.. أحب حالي وأنا طفلة تبكي وتضحك، وتخاصم وتصالح، وتقرر وتنكث قرارها، ثم تعيد النسج في جلسة واحدة، ويعجبني فيها هذا الجنون.. لكنني إذا ما صمت يومًا، وإذا ما أقلعت عن الاقتحام، فهذا يعني أن روحي

أصبحت تعاف الحياة.. وبأنها قد استكفت بما حولها، وبأنها لم تعد ترغب في شيء، ولا في حلم، ولا فيما يذكرها بالحياة.

- أتعلمين يا صديقتي؟ يا من كنت يومًا صديقتي، ما الذي يوجعني منك؟ ليس مهمًّا أن تواسيني، أو أن تنتصري لي، أو للحق الذي معي..

ليس أبدًا ذلك بالمهم، فقد اعتدت أن أتلقى أيادٍ رحيمة وقلوبًا يبعثها لي ربي من حيث لا أدري، فأسلو بها عن غيابك أحوج ما أكون إليك دونًا عن غيرك، فتنسيني دهشتي بالرزق الوفير ممن أكتشف، على حين غفلة مني، لحظة وجع معتق، أن أرواحهم تقتسم معي الروح، وبأن نبلَ أرواحهم وجمالَ أفئدتهم وهطولَ كلماتهم الياسمينية؛ تضمد جرحي، تنسيني انسحاب خطوك وتعرج ظلك، وتكسر طيفك على جدران صمتك الرهيب..

لكن شيئًا وحيدًا كفيلٌ بامتصاص أجفاني ومضغ فؤادي؛ أن أراك ترقصين طربًا على وقع كلماتهم، وتلِغِين في أوانيهم لتنفخي حولي - عن قصد - بِكِير تَشَفِّيك وشماتتك..

كم غسلة حينها تكفيني منك،

وكم حفنة تراب.

- أتعلمين يا صديقتي؟

نمارق الأوهام التي تَشَاركنا في نسجها بخيوط الدهشة، وقواميس المُثُل التي حررناها سوية، ونحن نعلم أن المدينة الفاضلة لا بوصلات تشير إليها، ولا معابر توصل إلى أبوابها.. ورغم ذلك واصلنا الحَبْك، واخترنا أن ننتظر نهاية النسج كي نستدفئ يومًا بها، مزقتها ذات غياب.. لم تعد دُثُر الأحلام تستهويني - يا صديقتي - لكنني من دونها حافية، والمُثل التي تراودني كي أعتنقها مرة أخرى قد قررت أن أعدل قليلًا من طوبائيتها، فقد نضجت بالقدر الذي يجعلني أعلم أنني لم أنضج بالقدر الذي يجعلني أقلع عن نسج الأحلام، وعن اعتناق المعاني.. شيء مركب معقد من قبيل تلك الفلسفات التي نتلقنها اضطرارًا من خيباتنا في الحياة.

- نظرت في عينيك يا صديقتي في لهفة أبحث عني.. لكنني اصطدمت بهما فارغتَيْن مني.. لم أجدني هناك، لكنني تعثرت بشظايا طللٍ قد تحطم مذ قرر الليل أن يهزم الإصباح.. لملمت حزني ورفاتي وعبقًا من ذكرى كانت رابضة في الجفن؛ أجهضتْها دمعة متمردة انشقت عن السيل.. جررت الخطى نحو الشمس أسلمها بقاياي كما يسلمها الطفل سن الحليب التي انتزعت منه ليلا.. أخفاها تحت وسادته ينتظر الإشراق.. أسألها أن تُنبتني في عيون لا تواريني بغمضة،

ولا تنزفني مع أول دمعة تطل عليها من خلف الحجب.. أتعلمين يا صديقتي ما الذي يؤلم الباذلين؟ أن يمنحوا نثار أرواحهم وأن يهدوا الشغاف والشريان وماء العيون.. ثم يضطروا بعدها إلى أن يستردوا كل العدة.. وأن يمضوا.. دون أن يلتفتوا.

- تعلمين يا صديقتي ما الذي يؤلمني منك؟ ليس أنك أمعنت في إيذائي بالقدر الذي يجعلني أخشى الاقتراب بعدها منك.. بل لأنني لن أحظى بعدها بنشوة الصلح بعد الخصام.. بعض الأذى يعلم الصمت كيف يبتلعك، ويلجم الفؤاد عن الشكوى.. وبعضه يشغلك بلملمة بقاياك المبعثرة عن اللوم وعن العتاب.
- أتعلمين يا صديقتي؟ ما خمنت يومًا أن خطانا ستشردها الطرقات، وأن روحينا التي ضفرناها مذ تفتح الزهر في أحداقنا يستكشف العالم حوله، ومذ كانت لغتنا الطفولية تنسج للود ألفَ نشيد.. وألفَ قصيدة، ستضطرني يومًا إلى أن أفك الجديلة، وأقذف بها في عوالم الألم، وفي دهاليز النسيان.. ما ظننت يومًا يا صديقتي أن لمعة قطعة نقدية، ورصيدًا بحساب بنكي، وسيارة جديدة، وشقة وبضع أسفار حول العالم؛ ستغير نظرتك لمعاني الوداد وقواميس

الصفاء، وتنسيك في لحظة أنني - فقط - منذ سنوات قليلة كنت أمثل لك المرجع والحضن والملاذ وتوأم روح لا تهدأ إلا بسماع صوتها بين حناياك كل ليلة ، تبكين بين يديها فتحمل عنك ما ناء به جيدك من أحزان.. أو تتحفينها بجديد أخبارك المفرحة والمسلية.. ما كنت أظن يا صديقتي أنني سأكون مضطرة ذات خيبة؛ إلى أن أنزع يدًا من بيعة، وأن أرغم روحي الساكنة عندك على الإياب.. وأن أضيف دهشتي تلك ولوعتي وخيبتي؛ إلى قاموسي المكتظ بالخيبات.. ما ظننت يومًا يا صديقتي أنني بكل لغات العالم سأرثيك، وبكل دموع مآقي سأبكيك، وبأنني سأكفكف عبراتي والأوجاع، وأكمل المسير دون أن ألتف إلى طللك الماثل خلفي ينظر إلى السماء عوضَ أن يتابع خطاي الراحلة الحزينة.

- أتعلمين يا صديقتي ما أجمل الأمنيات؟ تلك التي توصدين عليها أبواب فؤادك.. وتحكمين عليها بين معاطف عينيك الإغلاق.. تلك التي كانت لك - ذات موت - عجبَ الذنب منه قد عادت فيك الحياة.. تلك التي لا تملكين سوى أن تغمضي عينيك لذكراها الغابرة، وتنتشي أنها رغم كل شيء كانت هنا، وإن لم يكتب لك من تحقيقها كبير نصيب.

- الانهماك في الحياة يا صديقتي انهماك فيما يشغل قلبك، ويندي روحك، ويصنع من أحزانك طاقة تجعلك تفجرين كل مكنونات الصدر، وتنفثين كل الوجع، وكل الظلم الذي تحسين به، في دعاء صادق مُلِحّ، لا تتخيرين فيه الألفاظ ولا تنتقين فيه المعاني، إنما يخرج بتلقائية وعفوية تمليها حاجتك واضطرارك، وكل معناه احتماء من ضعفك بكلأ ربك، وانتقال من حولك لحوله وقوته، وتفويض لكل أمرك للولي الناصر القدير..

لنستبشر يا صديقتي.. كي تكون لنا البشارة وليكن انهماكنا فيما منه حياة أرواحنا وسكينة قلوبنا وقرب من الودود الجميل اللطيف.

- لاشيء.. غير أن مفارقات الحياة ما يصنع جمالها.. من خضم اليأس ينبع التحدي، ومن رمال النكوص يشرق الأمل والإصرار على الوصول.. ما تستميتين لإدراكه يا صديقتي؛ لا تجعليه يضيع من بين يديك.. مشاريعك التي أفنيت دهرًا عمرَك تنتظرين تحقيقها، لا تفلتيها بغمضة رمش.
- أكثر ما أخشى عليك منه يا صديقتي، أن يكون كلَّ ما تبقى لك منك جرعة مركزة من خوف، وقلب مترع بالخيبات.
- أتعلمين ما السعادة يا صديقتي؟ تلك الأشياء التي كان من

المفترض أن نعيش لحظتها الآن، لكننا أغرقناها في العبث أو التسويف أو التخطيط، وكأننا سنعيش الدهر كله.. نركض ونركض ونخطط - إذا ما خططنا - للحظة مجهولة في المستقبل، لا نعلم إن كان العمر سيسعفنا لنبلغها ونحتفل بالطلع.. وحتى وإن بلغناها، فهل كنا سنعيشها بكل عنفواننا وقوتنا، وبهجة شبابنا؟

- صديقتي تهوى القراءة، لكنها تقرأ فقط ما تريد، وتختزل قراءتها إلى ما وراء السطور، فتتلذذ بنفض الحرف من محتواه، وإلباسه ما تود عيناها أن تراه.

صديقتي تتلمظ بالحكم على من حولها، وتقضي وقتها حاملة سيفها، تصارع طواحين الهواء، تطيح بمن خالفها وتحفر الخنادق لمن حاورها.. وتنتشي المسكينة بالانتصار..

صديقتي تطل علي بوصفاتها لإنقاذ نفسي - زعمت - من الرتابة، وحرفي من الإثارة و الكآبة.. تشجب قصي الحزين، وتجلد حسي بسياط انتقادها العاتية، وحينما ألزمها بقولها، تخبرني أنها ليست "فاضية" لتتابع أحوالي وكتاباتي، فمن أين لها يا ترى بنبإ حرفي الضال الغوي، وحزن قلبي الدفين؟

صديقتي كالزئبق لا تختلط أفكارها بتجارب الآخرين؛ فقوة تمسكها برأيها - ولو كان خطئًا - أكبر من قوة التصاق الحق

بأذنيها.. وكلامها كقطعة صابون في اليد المبللة، كلما أردت الإمساك بخيطه تزحلق بين يديك..

صديقتي لبست عباءة الزهد، فرأت الإسراف في الملبس الجميل والمنطق الجميل، واعتادت على الاعتداد برأيها، وربما على تصفيق من حولها، فصار كلُّ من لا يرى الدنيا من نور عينيها فاشلًا أو تافهًا أو لربما مارقًا يستحق الجلد والتعزير..

صديقتي تكره كل جديد، تحب التقليد والتبعية، و"التقولب" والنمطية، وتكره بحنق "التوحد" والتفرد والتمرد، وترى في التغيير "تنحلا"، وفي الإبداع تلونًا، وفي التمرد والكتابة ربما خروجًا عن الدين..

ترى في الأدب ضياع وقت، وفي الفن طيشًا، وفي الشعر غواية، وفي علوم النفس قدحًا في التوكل، وفي نفث الوجع قلة إيمان بالقدر..

صعد الناس الأدراج، واعتلى بعضهم الأبراج، وصديقتي مازالت تبحث في كلامي عن نقطة سقطت سهوًا من التاء أو من الخاء، ومازالت تحاول إلزامي بما تراه، وتحاول فرض وصايتها عليّ رغم بلوغي سن الرشد..

صديقتي حملت على كاهلها نصح الكون وصلاح القوم..

أشبعتني "نصحًا" فأرهقتها إصرارًا واستقلالًا وعصيانًا،

ونبَوْت عليها، وأبت علي نفسي المتمردة "التنمط" و"التقولب".

تعبت صديقتي من نصحي، فاتخذت لنفسها الأعذار، وبرئت ذمة نفسها أمام نفسها، واتهمتني سرًّا بالمروق والتلون والتنحل والغواية.. ولربما بالتعصب والغباء.

- قد آن الأوان يا صديقتي كي تعانقي الأحلام، وتكفي عن الأوهام، وعن ملاحقة النشوة خلف جدران الموت.. لا شيء مضمون يا صديقتي، لكن كثبان الرمال التي هيئتها كي تصنعي القصور.. قد تربصت بها العاصفة.. لا تفكري في إعادة لملمتها، فإن الريح لك بالمرصاد.. لا تشيدي القصور يا صديقتي، ولا تسلمي شراعاتك لربّان تدركين جيدًا أنه لن يحسن قيادة سفنك الغجرية المتمردة.. لا تفكري في السفر إلا إلى روحك العنيدة.. وحدها تستحق منك الرحيل.. اكنسي الغبار المتناثر على حيطان ذاكرتك، دثري جزءها الذي قد أدمن وخزك؛ بأقمشة كنت تحيكينها كي تتلحفي من سفعة البرد.. أخفيها ولا تتركي سوى ذلك الخندق الذي يعبر بك إلى سويعات سعادة نحتتها على وجل؛ كي تفيئي إليها كلما أرمد الكون حولك.

خارج السرب..
(هديل وهدير..)

- أن تباغتك تلك الترنيمة العذبة لأنشودة قديمة.. تتواطؤ ضدك فتحملك ألحانها عبر دروب الذاكرة القاحلة المستوحشة.. تطوف وتطوف؛ لتحط بالقرب من مواقف كان من المفترض أن تكون جميلة، فالزمان وقت العطلة الصيفية، والمكان مكان متعة واستجمام.. رائحة التين والعنب الممتزجة بعبق التربة الندية المبللة برذاذ الشلالات تنساب بين الكرمات المنتشرة هنا وهناك، وجداول الماء البارد المتدفق يمنة ويسرة، تجعل تلك القشعريرة الخفيفة تنتابك حين لمسها، وكأنها - بالكاد - قد تحولت من مادتها الصلبة الثلجية إلى سائل منعش مشاكس عنيد، قد حطم حدود الزمان، وسافر عبر الفصول ليبتلع الصيف، ويقف بكل عنفوانه على سفح جبل كان قد كساه كانون من حلله البيضاء رافضًا الإذعان لحرارة أغسطس القاسية.. كل ما حولك يراهن على اقتناص الفرح و اصطياد النشوة من فيء الخمائل الملتفة على مشارف البهجة.. تطوف الذاكرة المتعبة

الموشومة بالوجع.. تبحث عن مرفئ تحط به رحالها.. تبحث وتبحث فلا تجد سوى الخواء ولحظات نكد وكدر، وتعاسة مستفحلة.. تحاول جاهدًا لأم بسمة قد مزعتها الذكرى، لكنها تغيض في شقوق الوجع، وتتصلب على الشفتين، تتجمد كأنما قد غُطست قهرًا في ماء الجداول البارد المتدفق يمنة ويسرة، فتأخذك قشعريرة لكنها حتمًا ليست كما تلك القشعريرة الجميلة المنعشة حين لمس الماء ، إنما هي رعشة بطعم الأسى ورِعدة بنكهة الخيبة..

- كانت تعلم أن الاقتحام عذاب، وأن أولئك الذين اقتحموا قد علِقوا وما عرفوا بعدها سبل الإياب، كما الجنادب والفراش إذ سقطت في المرجل، وما كانت تنوي إلا أن تحوم.. فتركت للصمت فرصة تدشين الأبواب، واحتمت بالهروب من شُرك الأوهام وأحبولات السراب.. كم في الهروب من جسارة لمن بات يخشى الحبال يظنها ذات الثعبان.
- وإني إذا ما رأيت الفراش مبثوثًا بقرب وردة اخترتها.. زهدت في الرحيق.. لكم الوردة.. ولي كل الخمائل.
- رأسي في هذه اللحظة كشاشة حاسوب.. قد فتح صاحبها بها عشرات النوافذ، لا يحتاج إليها كلها دفعة واحدة، وكلما همَّ أن يغلق إحداها خشي أن يحتاج إليها فيما بعد.. تلزمه الجرأة

والشجاعة كي يغلقها كلها، ولا يبقي إلا على ما يعتقد فعلًا أنه في أمسِّ الحاجة إليها.

النوافذ التي كان رأسي يعجُّ بها أغلقتها كلها.. لم أترك إلا واحدة تشرف على البحر.

- النافذة المطلة من رأسي، والتي تشرف على البحر، تغريني باعتناق الجنون.
- الحياة تنازلات لا تنتهي، ومغامرات ترقع ثقب الأحلام.
- لا شيء.. غير أن رموش الزهر البليلة قد تمايلت فتناثرت حبات الندى فوق الأرض العطشى.. التأمت شقوقها وأخرجت مزيد جوري وياسمين.
- كل المعطيات حولك كانت خاطئة، فلم تصر على أن تكون المعادلة صحيحة؟
- كعناقيد العنب المعلقة فوق الحيطان، لا هي ممنوحة فتمتد الأيادي لقطفها، ولا ممنوعة كي تحجم العين عن أن تمتد لمغازلة طيفها.. هكذا هي بعض أحلامنا التي نسجناها ذات تمن؛ جميلة.. وواسعة.
- نختار أن نتألم كي لا نتألم.. نهيئ بذلك أنفسنا للآلام الحتمية القادمة، أو لتلك المحتملة.. لكن "ما يحدث مرة يمكن ألا يحدث ثانية أبدًا، وما يحدث مرتين يحدث بالتأكيد مرة ثالثة".

- تعلم أنك قد تعافيت فعلًا، حينما تومض لك الذكرى، فتستطيع أن تبتسم لها رغم كل شيء، وألا تطالبها بأن تغادر، ولا بأن تستوطن.
- بعض الطرق نتفاداها.. لا لأنها طويلة أو عسيرة.. ولكن لأنها لا توصل.
- نطيل التنقيب بين القواميس عن عبارة واحدة متفردة تعدل ميزان الكون حولنا، فتنبعث عبارة تشطر الكون قسمين : سيد فاتح.. وبقية العالم.
- فكرة سلبية واحدة كفيلة بأن تزج بك في سجن نفسك.. أو أن تقسمك شطرين: شطر يسجنك وتظن أنك له السجان، وشطر يتفنن في نسفك.
- انسحب النص معتذرًا.. متعب وجه المساء، ذابلة عيونه، مفرغة من المعاني.. والمجاز قد انكسر.. حنانيك أيها المساء، دع الحطب المشتعل للقصيدة تستدفئ به.
- وللتراث عبق بنكهة الطفولة، ونسمات تفوح بعطر الذكريات.. من قال بأن الأماكن لا روح لها!؟ ومن سيصدق بأن القلب المترع بالخيبات قد يستعيد طفولته من غير سابق موعد، فقط في لحظة حلول في روح الذكرى.
- ويحدث أن أهرب مني بحثًا عني.. حتى إذا ما وجدتُني على

حين غفلة مني؛ تظاهرت بالنسيان.. ويحدث أن يعاندني التظاهر بالنسيان فيهزمني.. يكشفني أمام نفسي ويرغمني على التجلي، ويغلق دوني كل أبواب الهروب، وكل محاولات التسلل من المرايا.

- أيها السالكون قرب سياج الصمت، لا تعبثوا بورد الكلمات؛ فتحْت شوكها جفوني.
- أرج أغصان الحنين ما بين تفاصيل الذكرى ونتوء النسيان.. أهدهدها كما طفل.. كما جدائل الطفلة التي كُنتها حينها.. حينما كان للعيد تفاصيل لا يخطئها من يتنفس عبقًا، ويرتوي من إشراقة بسمة طفل، وطقوسًا لا يتقنها إلا من تحلق روحه بحثًا عن وجه الصباح في دِقّ عرجون العيد.. شيء ما يجعلني أطيل المكوث هناك.. يلح علي ألا أغادر لون الورد في عينيّ حينها.. تعتصر الذاكرة علها تعثر على عيدية تائهة هنا أو هناك في تفاصيل دروب الحياة، علّها تعيدني إلى حيث أنا الآن.. يطول البحث فلا يقف إلا بالقرب من ملابس العيد وشرائط الشعر وطقم الأساور والخواتم والأقراط المنتقاة بإتقان من طرف أمي الحنونة.. كم مرَّ من الوقت دون أن أحصل على هدية العيد؟ ضريبة أن نكبر قبل الأوان، وأن نتعهد أن نكون نحن الهدية والعيدية لكل من حولنا ما دمنا لا نمتلك فرصة الحصول عليها.

- فيا أيها العيد، حلق بنا من ضيق نفوسنا المجبولة على الكَبَد والضيق؛ إلى رحابة أرواحنا التوَّاقة للفرح وللمرح ولمعانقة سماوات السعادة.. حررنا من همٍّ قد جثم على صدورنا وتصاعد بتصاعد الأنفاس، وادخل بنا إلى حيث الأحلام المخملية والعوالم الوردية الطفولية، واسكب بين ضلوعنا بسمات ونفحات وأعطيات.. وتواشيح أمل.
- يا عابري دنيا الأكباد المقروحة، يا أيها المكتوون بجحيم شحها ولظى قساوتها، وضرام بؤسها وشقائها، أسندوا رؤوسكم إلى أكتاف الممتلئين بأرواحكم.. سلموهم أنفسكم وأغمضوا الجفون، واسعدوا برحلة آمنة في الأحداق وبين الخمائل وفي مراتع النجوم.
- وحدهم أولئك الذين يخوضون معاركهم معك بالابتسام.. ينتصرون في جعل سلاحك ابتسامة.
- تفر مني القصيدة خائفة.. تخشى أن أغرق حرفها في الأحزان.
- ربما نحن لا نحتاج إلى بطولات.. انتصارات صغيرة على نفوسنا المائجة تكفينا.
- هكذا ينهمر الخريف كلَّ مساء.. كدمعة شاردة في مقلتي يتيم.
- أسندت رأسها للظل فعاتبها الخريف، شمسه المتوهجة تحتضر، والكفن تنسجه غيمات السماء.. كفكفت دمعها.. فنبتت على وجنتيها ياسمينة وخمائل ورد.

- ربما كان علينا أن نكون أكثر قوة كي نفهم معنى أن تبتسم لنا الحياة ابتسامتها الدوشينية كي تخبرنا أنها أكثر قسوة مما كنا نظنه.. أو أن نكون أكثر سذاجة كي لا نفهم شيئًا.
- لا قلب للحزن.. ولا جوارح للخوف.
- حاكموهم.. هؤلاء الذين يسرقون السكر من قهوتنا.
- كيف أجرؤ على النظر في عيون الفجر، وليس فيها عيناي؟ كيف ألتقط شظاياهما.. وقد اختلطت بالبقايا المحنطة في شباكه؟
- الطير الذي نبت له الجناح، أفكان لينبت كما ينبت العشب؟ لكم كل البراري وكل البساتين اليانعة.. وله الفضاء الرحب يعانق نجم السماء.
- قد لا أعتب عليك في سنان كلمة شككت بها الروح ساعة غضب.. قد أغتسل من أدرانها ببنات جفوني، وقد أخمد الحرائق باسترداد قواميس الجمال الآنفة أواري بها سوءة عبث ونزق الكلمات.. لكن كيف لي أن أحطم تمثالي المنصوب في عينيك المنحوت بإزميل إسقاطاتك ومقارناتك؟ كيف لي أن أسترد صهوة الأماني، وأن أستنقذ طللًا فقط بالأمس القريب كان يستهويك الغناء على مشارفه وعلى أعتابه؟ كيف لي أن أسترد نجمي المدّثر بغيم الخريف؟ كيف لي أن أهزم الخريف!؟

- عن الشتاء سأحدثكم، وعن هذا الصقيع الذي يفتت زوايا الجدران.. عن أرفف الذاكرة الخاوية من فناجين القهوة، الفارغة من بعثرة الكلمات، اليائسة من المعاطف التي تدثر الأمنيات المحتضرة. عن القناديل المطفأة، وعن الأرواح المعتمة، وعن هذا الموت الساكن في ربوع الحياة.. عن صافرات الإنذار المعطلة إلا من هزيم رعد يرتجف له الشريان.. عن زجاج النوافذ المرقط بدموع السماء.. عن الشبابيك الموصدة، وعن الصمت الشاحب.. عن بقايا الطين العالقة في عتبات الأبواب، وفي ثقب الفؤاد.. وعن هذا الجنين الناعس في بطن السحاب، ينتظر ساعة مخاض ليزهر ولتسميه دروب الحياة الطويلة ربيعًا..

عن الربيع حدثتكم.. ما كان القصد أن أخلفكم وعدي.

- سلوني عن تيك الحكايا المنسية في عيون الفجر.. وسأقطف لكم بسمة وحبة ندى، وزنبقة أنثرها بين أيديكم.. ليست تلك كل الحكاية.. فبعض الأسرار لا يتقن أن يبوح بها سوى العبق.. وسحر الأحلام.

- كلما غاب البحر، حملت صدفة أنصت لهديره.. وخزنت صداه بين جفوني المطرقة.

- لا تقترب من امرأة قد أدمنت الحروب، واعتادت على بواخر الهجرة.. امرأة تنسج من شغاف قلبها أثواب الفرح وأكفانه، ولا تبالي بمن حط شراعه أو بمن غادر.
- سألوا الجمان المحتضر في عيون الليل: ما سبب حشرجتك يا أيها الجمان؟ قال: عبق إذا ما جسسته.. خشيته.. وإذا ما أنا منه فررت.. ناوشني.
- حبة القمح التي ضاعت منك بين السنابل.. ارشف دموع سماء الربيع قبل أن تمتزج بالجدب، وانفذ بين القش للبحث عنها.. عبق ديمة الربيع مازال محتبسًا في أحداقها.. سيدلك عليها.
- لا شيء، غير أني أخشى تلك البقعة بالضبط، تلك التي ينهزم فيها شعاع الضوء المتسرب من بين شقوق الشباك؛ أمام عتمة المكان الغارق في السواد والسكون.. تتكسر ذبالته، فتنتثر ذرات تتساقط قرب ظل الشق خلف الباب الموصد، فلا النور قد أعمى الحيطان وأغرق الصمت في زخّاته.. ولا المكان حافظ على هيبة سواده وسكونه.
- سيحبس النور بين شقوق كفيه.. لا ليستضيء.. ولكن ليحجبه عن التطلع لرمش السماء.. وليحجب عنه السماء.
- أتحايل على الضوء أن يصنعني ذرّة.. عساني أمرّ دون أن ترمقني الحياة.

- كأزاهير البرتقال، تنتظر الربيع كي تشطأ.. ثم على أعتابه تنتحب فيتوارى عطرها.
- قد نسج الفؤاد روزنامة التهجير، مذ أصبحت الطرقات تتنكر للراجلين.
- كم أحتاجك أيتها الأبواب، لا لأسند ظهري إليك، ولكن لأنظر إلي من شقوق المتارس.
- تتشعب الطرقات، تلك التي لا تفضي إلا إلى السراب.. فتختار الخطى أن تنبت تحتها نخلة سامقة ذات جذور.
- نحاول الرحيل أبعد من أعماقنا.. فيأسرنا الأسى.. لا الحكمة ضفرت جدائل السكينة.. ولا النزق بعثر أنفاسنا عبيرًا.
- انثريني.. يا شمس الهجيرة.. سنبلة عصفت بها الأشجان، تنتظر منجلًا يحصد أشجانها.
- أحيانًا يكون اختيارنا أن نمارس العمى؛ كي نعفي أنفسنا من كثير تقليب.. حتى إذا ما واجهنا أنفسنا، وشوشنا علينا بالعقل، اكتشفنا أنها كانت محاولات عقيمة لجعل الفيل يدخل سم خياط.
- يكفيك أن تقرر أن ترى.. كي ترى.
- لا شيء أكثر ضراوة من بحث عن المفاوز لتلقي بك إلى صخور المستحيل.. فلا الفسائل بقادرة على أن تنمو في الرمل، أو بين

نتوءات الجلمود.. ولا تغيير البوصلات بموصل للمرافئ.. ورطة حقيقية أن يختارك منتصف الطريق.

- الدهشة التي أصابتك ذات عزوف عن الأحياء، وأنت تركب قوس المطر، تحملك سبعه القانيات بعيدًا عن لون الرماد الذي لا يفارق ذاكرتك، قد برحتك حينما اضطر القوس إلى أن يغيض في قيظ الهجيرة.. وما القوس؟ سوى طيف عنيد يثبت للمطر وجود شمس خلف حجب الغيم.. حتى إذا ما قررت الشمس، بكل عنفوانها، أن تكتسح الفضاء؛ انحسر كسيفًا حسيرًا لا يلملمه قطر.
- بعض ما تلقيه الحياة في طريقك، تعامل معه بمنطق التجار، منطق الربح والخسارة.. واترك على الدوام خطة بديلة احتياطية كي لا يضيع كل رأس مالك في صفقة لا نفطن عادة إلى أنها خاسرة إلا بعد أن نبرمها.
- كلماتهم تتآمر علي.. تتواطأ ضدي.. تلتحم كي تقيم في مقلتي مأتمًا، وفي أحشائي سرادقات عزاء. مابالها تنبش قبور أوجاعي، وتُلزم ذلك الغبش الراكن في زوايا التناسي بالتجلي.. تمسح عني غشاوة ما حجبت قهرًا وغلبة، ولكن بنفسي خططت يومًا لممارسة العمى وللاحتماء بالنسيان من الذاكرة الموشومة بالخذلان.. عل رحلة الهروب والتناسي والاستعماء تعفيني من

التجلي ومن الاعتراف.. مابال كلماتهم ما قدّرت أرواحًا باتت هاربة من عبق الورد خوفًا من شوك بات يحرسه، ومن لسعة النحل المتجمهر بالقرب يسأل رحيقًا.. قاسية رقة كلماتهم.

- النقطة التي سقطت عمدًا من "الصدق" حوّلت المسار إلى "صُدف".

- أجمل العهود، تلك التي تأخذها على نفسك حالة صفاء وانتشاء.. تحاول بعدها بكل ما أوتيت من حزم وعزم ورباطة جأش أن تنكثها.. فتهزمك.. لا تعلم حينها أتسعد لأنك باق على العهد.. أم لأنك جميل بهذا العهد.

- تعتذر لي المرايا والفوانيس والطرقات والبوصلات.. ألملم حقائبي وأنكس أعلامي وأرجع أدراجي من رحلة هذيان.. يلامس الغيم دخان شواء حلم كان ينتظر صيحة الفجر كي يحيي الطل.. تبعثر الصبا رماده.. تذروها فوق الربى الهاجعة، عل قطرة مطر تزرعه وردًا وعطرًا وأنغامًا.

- يطرق جدران مسامعي أنينهم المغلف بالصمت.. وبعتاب الحنين.. مازال نديًّا.. رخيما.. مغرقًا في الأسى.. ومازلت وفيَّة للغياب.

- رويدك.. يا أيتها الأيام الراكضة في جنون.. ثمة أعمار ستنقضي، ولمّا يولد أصحابها.

- الطيور التي اعتادت على الرحيل.. لا يفزعها الخريف.
- لم تفشل، ما دمت تستطيع أن تغير فيهم ما لم يُكتب أن يتغير لك أنت.
- "أولمب" قد ناء بصخرة الأحلام "السيزيفية".. تلك التي كلما ارتقيت بها؛ بطحتك.
- أيكفي اسمك يا طيور النوارس ذكْرى إذا ما حان الرحيل؟
- كفُّوا عن الحزن.. كي يبرحني.
- أغلب من ينتظرون فرصتهم في الحياة، يصرّفون أيامهم في جرد الخيبات وحشد اللوعات.. وقلة منهم من تتربص بالحكمة التي كان مهرًا لها شيبات الشعر، وهرم الفؤاد قبل أوان الهرم.
- مازالت دنياك بخير.. ما حملت بين حناياك مضغة تضخ حب الخير، وبين صدغيك لسانًا ذاكرًا.. وفي جعبتك قطرة حبر.
- نحن لا نحتاج أحيانًا كثيرة إلى من يجاملنا، ولا إلى من يمدحنا، لحظات صدق وطهر وجمال، ونقاء مع من شاركونا طفولتنا، وشهدوا نجاحاتنا وإخفاقاتنا، ويفهمون ضعفنا، ومكامن قوتنا، كفيلة بأن تمنحنا شحنة جديدة لمواصلة تشبثنا بالحياة لا لنحيا، بل لنمنح الحياة من أرواحنا فرصًا لمعانقة الجمال وطلب الكمال.

- الهروب يرغمنا على القبول بما نحن فيه.. يمنعنا رؤية البدائل.
- ما نفع الهروب.. وما نفع أن نحجب الشمس بإغفاءة أو بإيماءة أو حتى بالهذيان.. يظل الأسود أسود، وإن دثرناه بقوس المطر.
- "دعوني أخسركم قليلًا، كي لا أخسركم بالكلية. "فلسفة تمليها علينا كثيرًا دروب الحياة.
- ما أخطأته رحابة الفضاء.. لكنه لا يبغي عن غصنه امتدادًا.
- ما خطأ المُزن سوى أنه يغدق على السنابل بفيضه.. يقتلها.. وما رام إلا أن يحييها.
- أغلب من يبكون السعادة.. قد تكون بالفعل بين أيديهم.. لكن فرجة أصابعهم الكبيرة تجعلها تتسرب من بينها.
- بعض الأجوبة المبنية على سؤال خاطئ، أنى لها أن تصيب.. ما بني على باطل، فهو باطل.
- اثنان لا تثق كثيرًا بكلامهما، وإن كان ظاهره حق.. ذكوري متطرف لا هم له سوى الاستهزاء والتقليل من شأن المرأة، وإظهارها في صورة الرعناء الشمطاء المتجاوَزة.. ونسوية متعصبة لبنات جنسها، يجعلها تحيزها تغمط الكثير من الحق وتتطاول على الطبيعة الأنثوية، وقبلها البشرية.

- داخل كل نسوية متحيزة، رجل غير مكتمل النضوج.. فهي أقرب إلى مسخ منها إلى أنثى.
- على الضفاف رقصت طيور "الفلامينغو" تحيّي أديم النهر.. محرم ماؤه عليها تشرب منه حتى الرواء.. أرادت أن تسرق جرعات للذكرى.. ماتت مسمومة.. مالها ترياق ولا راق.
- مازالت الحمائم ترتقب تأويلًا لرؤياها، يا أهل البلاغة أفتوها إن كنتم للرؤيا تعبرون.. لِعصف وفير رأته يملأ كف طفل صغير.. وجورية بالقرب قد سرقت نُوَاحها، تتضوع كلما رمقت بسمة الطفل.. فتشجن.
- من كان متدثرًا بالحرف، فلن يطول تخفيه.. أقسم الكلام أن يكشف سرَّ كل محتم به من شر نفسه.. وأن يذيع كشفه لحاملي المباخر.
- في المنام، رأى أنه يستفتي شيخًا وقورًا، يسأله أن يعبر رؤياه.. قال الشيخ: احْكِ يا ولدي كل التفاصيل! فأنا بالتعبير عليم.. احْكِ يا ولدي؛ سلامًا.. وكل الخير فيما ستروبه.. قال: يا عم رأيت - وحلمي هذا مكرور؛ يراودني كلما أغمضت الأجفان - رأيت أنني أجلس في بستان، والورد حولي يعزف أشجن الألحان.. وزنبقة بالقرب كانت تحتضر.. طوق السحاب عنقها بجمان السماء فأشرقت وريقاتها ببسمة، وعبقت أريجا

وحياةً.. استفقت على هزيم الرعد وصولة البروق.. كان المطر غافيًا.. وكانت الزنبقة تغطُّ في موت زؤام..

أطرق الشيخ واجمًا، وشرّد الصمت خيط الكلمات.. تململ.. تنحنح.. شرقت عيناه تطارد فكرة شريدة.. قال: يا ولدي، انفث عن يسارك ثلاثًا، واستعذ.. تلك أضغاث اليقظة.. لا تنم بعد هذا يا ولدي، حتى لا تسرق منك الأحلام.

- لو ما كان للسفر من مَزِية سوى أن يجعلنا نشتاق إلى العودة إلى الرتابة.. لكفى بها مزية.
- قلمه الذي رسمها ذات تجلٍّ يحتاج إلى مبراة.. كُسر رأسه فغاب رشقه.
- وإنك لتؤدي ثمن استبطاء قراراتك لحظة عدم تقدير دقيق للأشياء، أو لحظة مثالية وطوباوية جعلتك تسوِّف؛على العوسج يُنبت تفاحًا، عمرًا تراه يتسرب من بين يديك.. وما أنت بقادر على وقف سيل الأيام المتدفقة في اندفاع.. ولولا الإيمان بالقضاء والقدر، وبأن استخارة العليم الحكيم لم تفارقك في حلِّكَ وفي الترحال؛ لأهدرت ما تبقى منه كمدًا وحزنًا على أنك تأخرت.. على أنك قد تأخرت كثيرًا.
- يجاوز النجم الأرصفة العتيقة؛ ليرصع مرط السماء.. من لك يا أيها الملح المتكلس في أحداق المرايا برشة ماء.. تذيب ما تكدس؟

- أتعلمون ما الذي نحتاجه كي نخفف عنا وطأة المسير؟ أن نشمر كي نلاحق الكمال.. وأن نتعلم الكثيرَ الكثير من الجمال.
- أصعب ما يمكن أن يقوم به حائك، أن ينسج بأنامله في ثقب إبرة عوضَ أن يخيط بها.. حتى إذا ما شارف نسجه على الاستواء، اضطر إلى نكثه.. كم من جهد قد أفرغ كي يحيك.. وكم من قصد قد بذل كي ينكث.
- أكثر الأمنيات إزعاجًا.. تلك التي تلح عليك ولا تجرؤ على الدعاء لتحقيقها.
- "لا تسألوه أبدًا عن تلك الأشياء التي يصر على أن يفقدها من بين يديه.. قد فقد قبلها شهية الانهماك في الحياة.."
- حياة واحدة فقط.. ومازلنا نتلمس دروبها، ونتساءل هل حان وقت الاقتحام.
- لملم أحلامك المتناثرة، واصنع من قصاصاتها وردة.
- بداية "الجفاف" قطرة.. تلفحها الشمس، وتعجز عن صد الأرض العطشى تحتها.. فلا هي قد سقتها فرَبَت، ولا هي قد أنجبت السيل.
- أتعلم ما الذي يلهب مجمر غيرتهم ويوري زند حنقهم عليك؟ تلك الأشياء الصغيرة الجميلة التي تمتلكها أنت.. ولا تستطيع أمواههم أن تقتنيها.

- قالت: كيف حالك؟ قلت: حال من ينتظر.. وبعض الانتظار جمرٌ يلهب الأحشاء.. لكنه يجعل اللسان يلهج بالدعاء.
- تحية تقدير وإجلال لانتظار يعلمك الهدوء والصبر.. والانتشاء بعَدِّ الدقائق والثواني.. يعلمك ألا تكون متوترًا ولا مستعجلا.. وأن تحبس دقات قلبك المتواصلة، تمنعه أن يقفز من بين ضلوعك.. يعلمك أن تنتظر.. وفقط أن تنتظر.
- لاشيء، غير أن القمر يدفع ثمن اكتماله شزرة ممن يعشقون الأهلة.
- أجمل شيء في الانتظار؛ أنه تجارة لو علمنا كيف نديرها، ليصير ذلك الذي نهدر بسببه الساعات والأيام، أفضل العبادات القلبية.. حينما يتكوم القلب الصغير، ويسجد بين يدي مولاه طالبًا الفرج العاجل القريب.. يطلب الغوث والمدد من الولي المغيث، ويسأل فارج الكربات أن يفرج همه.. يبذر بذار دعواته، وينتظر الزرع من مخرج الشطء.. والصبر يؤازر الدعاء ليستغلظ اليقين، ويستوي على ساقه.. فيبتهج القلب المترع بالأحزان بمعية الله ونصر الله، ولطف الله.
- بعض الانتظار مجرد تأخير غير مبرر لمعانقة القادم الجميل.. الحياة تُقتحم فلا تنتظر أن تسنح لك فرصة سبر أغوارها، بعض القرارات تحتاج أحيانًا إلى سرعة وخفة وعدم مماطلة..

لن يرحمك تدفق الأيام من بين يديك، وما يفيدك اليوم لَمَا تسوّف الاستفادة منه وترجئها؟

- أهدهد قافيتي بين كفي.. أرصف المعاني.. أنتظر مطلعًا للقصيدة.. وأنتظر المطر؛ كي أستودعه أمنيات الكلمات.
- أوجع من الحزن.. استشرافه.
- أخشى جدًّا ذوي الوجهين، أولئك الذين يقولون لك ما لا يقولون عنك، وينمقون الحديث معك، ويصفون حسابات غيرتهم أو ضغينتهم إذا ماوَلَّوك ظهورهم.. يتكلفون الابتسام في وجهك، لكن بسمتهم تأبى إلا أن تتسرب من بين أسنانهم صفراء باردة ممقتعة لا شعاع لها، لا تقرب روحك ولا تستطيع أسنانك أن تبادلها بسمة لا صادقة، ولا متكلفة مثل تلك التي ألقت بها إليك.. أرواحهم تنزلق من بين أصابعك كما الصابون المبلل، وتتململ بالقرب منك وتتكوم كما الزئبق.. وأخشى أكثر من ذاك، من ذوي الوجه الواحد المستَهلَك المصدر لبسماته على حد سواء بين كل من يصادف، الموزع لصدق محبته - زعم - للمرء وضده وللصنف ونقيضه.. يقسم ويعقد الأيمان وينذر، ويتمسح بمحاريبك أنك لروحه الخل والنديم، والمتفرد بصدق وفائه، وما سألته أن يكون لك كذاك، بل ربما لا حاجة لك

أصلًا بانفراده بخلتك، لكنه يفعل تملقًا وتزلفًا.. حتى إذا ما التفتَّ بالقرب منك غير بعيد؛ وجدته ينسخ أيمانه، وينقل نذوره ويوزع صكوك محبته على صديقك وعدوك وشبيهك، ومن لا يمكن بحال أن يكون من طباعك، ولا من روحك قريبًا.

- بعض الشوق يذكرك بأنك مازلت على قيد الحياة، وأن شيئًا فيك على الاقل مازال ينبض.
- لست بالقوة التي تجعلك تهزم الحنين.. ولا بالضعف الذي يجعلك تنساق مع نسمات المساء وتواشيح القمر.. عالق أنت كلاجئ سياسي مبعد عن الوطن، يخصف عليه من التناسي كي يواري الشغف ويقبر الأشواق.
- كن منحازًا كي أعلم أنك ذو رأي وذو قرار.. لا تتحجج بالحياد، فإنه وجه آخر للعمالة.. أو كن ذا وجهين كي يسهل علي تصنيفك، ورصفك في الخانة التي فيها يجب أن تكون، ولا تمثل دور الحكيم.. وأنت تبتسم للضحية وللجلاد.. صنفني أيضًا.. خذ حريتك في أن تجعلني طرفًا آخر في المعركة، ولا تبتسم في وجهي تمامًا كما تفعل مع خصمي.
- نتوارى عن الشوق خلف الانهماك نحتجب عنا به اللوعات، فتكشفنا المواسم.

- أهون مليون مرة أن تعتذر - صراحة ومن غير تورية - عن خدمة لا تستطيعها أو لا تريد القيام بها، فيعرضك ذلك ربما لفقد من طرقوا بابك إن كانوا قليل تفهم، أو لأن يكبروك لصراحتك، فيعذروا تخلفك عن المعروف.. على أن تعد بلا وفاء، أو أن توهمهم بقضاء حاجتهم، وتغرر بهم ساعة عسرة، حتى إذا ما جاء وقت الأداء كان لهم منك الهباء.
- أكبر جريمة نرتكبها في حق أرواحنا..

في انتظار أن نحيا، ننسى أن هناك حياة بالقرب منا نستطيع أن نسترق منها جرعات حياة.

- الحياة التي كنا نروضها بالكتابة، قد أعلنت العصيان.. علمت أننا نشفى منها بجرعة حرف، فحرضته انتقامًا على التمرد.
- قمة النبل ألا تعاتبهم كي لا تحوجهم إلى الاعتذار.. وقمة الواقعية ألا تفعل لأنك تعلم أنهم لن يعتذروا.
- نهرم حتمًا ساعة عبوس، ثم إذا ما ابتسمنا عدنا أطفالا.
- أفك جدائل الليل كي أحجب بها عني عيون السراب.. تطل علي من شقوقه.
- أطارد طيف طير مكسور الجناح.. فيرتمي بين يدي كنجمة لفظتها السماء.

- ببسمة للنجم الذي يلهب أديم السماء، هكذا نهيئ الصباحات السعيدة.
- الهموم الكبيرة، تصنع أرواحًا كبيرة.. وهمًّا تلوح للذرى.. والتفاهات تسجن القلوب في الفجائع.
- تشبثوا بذكرياتكم الجميلة، وانبشوا قبورها من حين لحين.. فكم من أولئك الذين ينقبون - عبثًا - عن ذكرى شبيهة يستمدون منها فتيلة تضيء عتمة أيامهم الحالكة، فتعوي في آذانهم رياح الهباء، وتصطك أسنانهم من صقيع العراء، ولا يصطدمون سوى ببراكين الأوجاع، ونيران الأحزان المحرقة.
- ليس بالضرورة إزهاق روح بعض الأحلام، ولا التخلي عما تشتهيه الأنفس في حدود الحلال، فتلك جبلة الإنسان وما خلقه الله عليه.. تأملت كثيرًا في بعض مبهجات الحياة، فإذا بها، قبل أن تكون ترفًا، تيسر للعبد شؤون حياته، وتقربه من ربه وتسهل له سبل عبادته سبحانه.. قد لا نكون في حاجة إلى التلبس بالزهد، ولا إلى اعتزال الناس في صوامع، ولا إلى الاعتصام بجبال نتصوف في كهوفها، وننتظر نهاية الرحلة.. قد يكون فعلًا ما ينقصنا أو ما يُصلحنا بيت واسع وسيارة فارهة وأثاث راق ووو.. لكننا على كل حال ما علينا

طلبها إلا بالسعي الحلال. والدعاء يقرب البعيد، ويتيح ما نراه نحن بنظرنا القاصر مستحيلًا.. ويجعل حصائد الشوك مروجًا.. ما نحتاجه ليس التزهد ولا اعتناق الدروشة، إنما نحتاج إلى اليقين وإلى حسن التوكل على الله.. بل إلى فهم معاني وحقيقة التوكل قبل أن نزعم أننا متوكلون.

- ربما ما يتعب الآخرين منا، أننا نتصرف أحيانًا كثيرة بنوع أرستقراطية، لا تجعل أفكارنا مشاعة.. نتوارى خلفها كي نبعثر تخميناتهم، ونغير مسار تنقيبهم وبحثهم خلف ما نفكر به.. وحدهم أولئك الذين يجيدون الحدس ويتقنون سبر الأرواح، يستطيعون امتلاك الحقائق المطلقة.
- نرش الأماني بماء المطر، فيُنبت في الأحداق وردة، وفانوسًا وسرب حمائم.
- من لايحسن انتظار الشمس في عقر الظلام، لا يستحق وهجها ساعة إشراق.
- جميل أن تغفو.. وأن تستيقظ فاتحًا نصف عين ونصف تفكير ونصف ذاكرة خاملة منشغلة تمامًا بأنصاف الأشياء.. لا تقلب الأوراق العتيقة، ولا تعبأ بالبراويز، ولا تأبه بمن رحل، ولا تحتفي بالعائدين، ولا تتلهف على سماع أخبار من غابوا.

- لا شيء.. غير أن رموش الزهر البليلة قد تمايلت فتناثرت حبات الندى فوق الأرض العطشى.. التأمت شقوقها وأخرجت مزيد جوري وياسمين.
- النوافذ التي أوصدتها ذات مطر، قد أنبتت بين نتوءاتها عشبًا أخضر، واستوطنت في زواياها العنادل.
- تكلف الابتسامة واصنع العيد.. لا تنتظرها أن تخرج طواعية، باقة الورد لا تجمعها الصدفة إن لم تنسق بنفسك من الأزهار ما يبهج العيون ويسلب الألباب.
- ستباغتك الحياة بمن يهدون لك فرحًا مدججًا بالأشواك لا لتفرح، ولا لتحزن.. وإنما كي تعلم أنك لست مضطرًّا إلى أن تجد مبررًا لكل ما تلقيه الحياة في طريقك، ولا إلى أن تربط المقدمات بالمآلات.. فبعض ما تمرّ به، قد يكون لأجل أن تتقن التدبر وسبر الحكمة وتصحيح المسار، وبعضها كي تدرك ضعفك وانهزامك أمام ما كنت تتشدق بقدرتك على تحديه.. وبعضها محطات عابرة لا تستدعي ولا تستحق أن تمضي الوقت في فهم الحكمة من عبورك لها تمامًا كما تلك المحطات التي تلحظها عبر نافذة القطار، فارغة مستوحشة مهجورة إلا من يد حارسٍ.. مهمتُه أن يشير بلوحته المخططة للسائق في إشارة لا يفهمها الركاب

فيمضي القطار دون أن يتوقف بها؛ لأنه يعلم ألا مسافرين ينتظرون بها.. للحظة تتساءل عن سبب إنشائها مادامت لا تستقبل الوافدين ولا تودع الراحلين.. ثم ما تلبث أن تتذكر حركة الحارس التي لا تفهمها، ولكنك تحاول - كي تعفي مخك من وخزة السؤال ومن خيبة عدم إدراك الجواب - أنها ربما لتبارك المسير، وإن كان القطار لايحتاج إليها كي يواصل بحثه عن المحطات المأهولة كي يحمل العابرين.

- رأت فيما يرى الرائي أن ضوء المنارة الذي طالما حجبته الغيوم قد ومض.. وبسمة في ثغر السماء قد بددت الغيم..

استفاقت على طقطقة جُمان السماء.. دمعة مصلوبة في جفن القمر قد هدَّها الانتظار؛ فارتمت تستجير من أحداقه بوجنتيها.

- تنظر حواليك علَّ شيئًا من روحك ينتفض.. علَّ تمردها المعهود يحجب عنك براثن الاستسلام.. لكنها مستكينة لا تتمرد.. ليس لها الحق الآن أن تتمرد.. تجد نفسك غارقًا في كل شيء حولك تائهًا عنك.. مغلوبًا مسحوقًا مطحونًا.. مستسلمًا لعجلة الحياة تدور بك.. لستَ لك.. لا تصلح لشيء عدا أن تعيش فانوسًا تضيء لكل من حولك وفقط لهم.. كل المعابر إليكَ مغلقة كي تبحث عنك.. وكل المرافئ لا تستقبل

الزاهدين في الحنين.. ارفع رايتك البيضاء، وطبْ بعبقٍ كُتب عليك أن تنشره دون أن تستنشقه، وبنور قدر لك أن تنشره لا أن تستضيء به.

- تجود العوائذ بِطلّة.. فتجود الجفون بِطلّ.
- قال الطبيب لهم: قد مات.

قالوا: ما سبب الوفاة؟

قال: لا أعلم تحديدًا.. ولكني أظن أنه من فرط انتظار الحياة.. قد مات.

- استرقْ بسمة.. ولو من بين شقوق الهم.. أغمض عينيك وابتسم.. أخرجها من الأعماق.. ستلاحظ أن رئتيك قد غيرتا الهواء الذي تتنفسه.. بسمة كما الزفرة.. اجعل عينيك يستقبلانها.. ابتسم.. بسمة عميقة.. تليق بفاتح ينشد تحرير مدن الرماد من قبضة الكآبة المستديمة.. اسرق من دروب الحياة.. بسمة.
- أغمسُ ريشتي في المطر؛ كي أرسم وجه هذا المساء، فينبت لي الربيع.. أرأيتم ربيعًا ينبت من أحداق كانون!؟
- يكفيك أن تدمن قهوتك بسكر؛ كي ترفض مجرد تذوقها إن كانت خالية منه.

- ماعاد يستهويني أن أنتظر أغسطس، وأن أشهد موسم الحصاد.. لكنني مهووسة بقدوم شمس الربيع التي ينجبها المطر.. والحبة التي نثرتها ذات خريف ستشاركني طقوس انتظار الطلع.
- أشجن ما في لحنك يا طير، بحَّةُ صوتك عند الغروب.
- قل للنسيم الذي جفا الزنبقة العتيقة: لا تخش الزنابق يا أيها النسيم ولا تجافيها.. كلما عمرت فاح عطرها.. كما المسك إذا ما عتق جاد عبقه.
- بقعة ضوء أحتفظ بها في دفتر أسراري.. أبعثها من مرقدها كلما غابت عني الأنوار، أتحسس بها العالم حولي، أخنق العتمة بحبال من نور.
- النبتة التي لا تحسن استقبال الطل.. يقتلها الظل.
- أكثر أولئك المنظّرين للمعاني هم أبعد ما يكونون عن فهم حقيقة ما يتشدقون به.. تراهم هائمين على وجوههم يفصّلون للمعنى ألف ثوب، ويلبسونه من حروفهم الفضفاضة ما يوهمون غيرهم بأنهم فرسانه المغاوير، حتى إذا ما خلَوْا إلى أنفسهم ونظروا إليها في المرآة، وأبت إلا أن تفضح سرَّهم، تذكروا أنهم مجرد عابثين مطاردين للفَراش صائدين للأوهام.. وبأن ما يدعون التنظير له وتوصيفه

وابتكار الحدود له أسمى من أن يلمسوه أو يعلموه أو يفهموه.. فضلًا عن أن يعيشوه.

- لا تتركوا الشمس تجثم على أنفاس الندى.. ستبخرها.. أنقذوا الطل من لفحات لهيبها.
- مخزون الذكريات الجميلة، شحنة للاستمرار في طلب الحياة.. فكيف بمن كلما رامَ إيقاف مركبه بمرفأ ذكرى علَّها تكون جميلة؛ قذفته الأمواج إلى العواصف؟ حري بنا أن نصنع من يومنا ما يسرنا أن نلقاه غدًا مرفأ جميلًا نأوي إليه.
- ذاكرة الورد.. تحتفظ بالعبق.
- لا أحد يحمل معي ذاكرتي.. لا أحد يقتسم معي ثقلها.. مضطرة أنا إلى أن أعيد ترتيبها فصًّا فصًّا، وأن أكنس في كل مرة بقايا وجوه ورفات أحلام وشظايا مواقف تشك الحنايا كي تذكرها أنها كانت ذات خيبة تحرس الوجع، وبأنها مازالت على العهد حريصة على الانتقام.. مضطرة أنا إلى أن أدمي أناملي كي أنتزعها.. وأن أنفخ في أحلامي روحًا جديدة تستحق أن أفقد معها ذاكرتي.. وأن أحتفل بعدها بالانتصار.. سعيدة بالانتصار.
- "الإنسان القزحي"

ذاك الذي يشقي نفسه بتسليع الأوهام وتصدير الأحلام، ويشقيها أكثر إذ يصدق نفسه أنه - يومًا - سيطالها.. يصنع

القصص، ويتوج نفسه بطلًا لأحداثها، ويزعم رغم كل شيء أن من حوله سيشاركونه البطولة.. حري بقوس المطر أن يوقن بحقيقته المؤسفة؛ أنه مجرد طيفٍ عنيد ليس يفعل سوى أن يثبت للمطر وجودَ شمس خلف حجب الغيم، وأن ينحسر إذا ما اشتد القطر، أو يغيض في قيظ الهجيرة إذا ما نبتت الشمس بكل ما فيها من وهج تطرد الغيم.. وتطرد الوهم.. وتطرد سرابًا اسمه قوس قزح.

- خشيت أن أقترب من الحمامة التي اعتادت أن تزور مشرفيتي تلوّن الصباح ببهجة شجنها العذب، فتهرب فزعًا مني.. فلا أنا حظيت بامتنانها لشكري، ولا أنا أبقيت على صحبتها بالقرب.. هكذا أنا، قد أدمنت الهروب كي أحتفظ ببقايا الأشياء الجميلة في ذاكرتي.. نقية راقية رغم كل شيء، لا يفزعها مني اقتراب، ولا أضطرها إلى أضيق الطرق، وإلى ضرورة الاختيار.. واتخاذ القرار.

- (سجن) (1) عثرت على قصاصة فارغة بين ثنايا كتاب.. أعماني بياضها؛ فرسمت وردة بلا لون، وعصفورًا بلا عينين، وبابًا مواربًا، وغفوت.. استيقظت على أنين الوردة داخل قفص.. والعصفور لم يكن هنا.. من رسم القضبان، وجعل الباب الموارب فتحةَ قفص؟ من أعطاهم الحق أن يسجنوا

الورد في الأقفاص؟ ولم يئن الورد.. وهو يعلم أن مكانه المروج، وأنما القفص حكاية قلم رصاص عابث؟

(2) غفوت مرة أخرى؛ لعل لوحتي تسترجع ذاكرتها.. فتحت عيني، وجدت بين يدي قصاصة بيضاء فارغة تنتظر مكانها بين ثنايا كتاب.. لكنني سمعت شدوَ عصفور بالقرب، وصرير باب تتقاذفه الرياح.. وشذى ورد يعم المكان.

- كنْ كما المطر، يمد قطره يتلمس بتلة وليدة لزنبقة.. يمدها بالحياة، فتمده بالعبق.
- ما الذي يجعل نحيب العصفور يلهب قلب العشي يشطب خضاب السماء.. سوى لوعة تغرق روحه في الاغتراب وسط أسراب الطيور.. سوى إحساسه المتنامي بفقد الانتماء.
- لا شيء..

غير أن صدى الأمنيات يوجع الذاكرة الخاملة.. يستفزها كي تسترجع جواز سفرها، وتهيئ حقائبها كي تسافر، حيث المزينات تداعب رذاذًا يتحين الرسُو على وجنات جورية نعسى.

- هل جربت - يومًا - أن تنتظر الشمس في كبد الليل، وأن ترقب النجوم من تحت الغيوم، وأن تقطف وردًا من نزف الجراح؟
- لماذا نصر على أن نعيش الحياة بكل العمق الذي فينا.. وإلا أن نعزف عنها عزوف زاهد مزيف، إذ لم يجد ما يملأ عينيه،

اختار الانزواء؟

- شفيف الروح.. قريب مهوى الدمع.
- تتحول أرواحهم في حالة عجز، وتجاوز إلى عازف ناي لا يحسن العزف.. كلما أصدر نغمة خرجت نشازًا.
- هؤلاء الوافدون بعد إسدال الستار، لهم حسرتان:

حسرة لأنهم قرروا الإدلاج بعدما اختاروا أن ينقطع بهم المسار، فتكبدوا هزيمة تراجع عن قرارٍ وهزيمة الوصول بعد أن أسدل الستار، وحسرة لأن بعض الستائر إذا ما أسدلت ما كان ليطيب لها يومًا أن تستقبل المتأخرين، ولا أن تتركهم يطلعون على ما تحجبه وراءها.

- لا شيء،

غير أن بعض الماضي يأبى إلا أن يَنِزَّ لك من عيون الأبرياء..

كلما وددت أن تقبره؛ أبت الشراكة إلا أن تكمل جولتها لأجل التنكيل بك..

لا شيء،

غير أن بعض الماضي ابتلاء، يعلمك ألا تغفل عن الضراعة، وأن تجدد استعانتك.. وطلب الولاية من الولي الوكيل - سبحانه.

- لا شيء.. غير أنني أكره أن أكون رقمًا في معادلة لا تؤول في حلها إلا لأن يكون الخارج صفرًا.. بل أكره أن أكون رقمًا مجهولًا في معادلة.. لا أقبل إلا بأن أكون الحل.. ورقمًا موجبًا لا يكتنفه سلب.

- أحداق آيار تومض دهشة، ويفغر هذا اليوم فاه.. شاحب وجه السماء.. والشمس تفرك أناملها لتدفئها.. والمطر الذي غادر من مدة قد عاد.. والبرد الذي قرر أن يهاجر؛ نسي معاطفه هنا،

عاد ليستردها.. فاستوطن.

- العصفور الذي تخلف عن سربه المهاجر، يقف حزينًا خلف الشباك يبثُّ أشجانه لغصن الشجن:

"ما يرعبني أيها الغصن، ليس كوني فقدت أصدقائي.. وفقدت بوصلة الطريق إليهم.. ما يحزنني أنني لن أستطيع أن أحصل على أصدقاء جدد.. لن أموت من الجوع ولا من العطش، ولا حتى من الشوق إليهم.. لكنني سأموت مرعوبًا من الوحدة، ومن العراء."

- قطعتُ أشواط الليل منذ أن قررت الشمس أن تنسحب في هدوء مسلمة عرشها للقمر، إلى أن حثتها خطوتها الناكصة المتولية على أن تتقدم خطوتين إلى الأمام.. تشرد

العتمة، وتمزق الأستار، وتنشر عبق نورها على الوجود.. قطعتُ معها كل تلك الأشواط، وحرقت معها المراحل، وشيدت أبراجًا، وحطمت أسوارًا، وسقطت في الحفر.. ثم خرجت منها بعد ذلك أكثر قوة وأكثر صلادة، وأكثر إصرارًا على متابعة مشهد الإشراق.. حملت كل ندوبي وكل ورودي، وكل حقائبي؛ كي أغفو سويعة في حضنك أيها الصباح.. فأنسى الليل والأشواط والأسوار والحفر لحظة نثار العبير وميلاد فجر جديد.. لست أخشاك أيها الصباح.. فمن قاوم بحثًا عن ومضة نور يهديها لمن حوله لا بد محب للمقاومين مثله.. الباحثين مثله عن محطة استراحة يستنشقون فيها الراحة، ويقبرون فيها أسلحتهم وكدَّهم، وكل أوجاع السنين.. اللهم راحة هناك بفضلك ومنتك.. وراحة هنا.. وزادًا تبلغنا به المآمن.

- للرقي لغته التي لا يتقنها سوى أطباء الأرواح وحكماء القلوب.
- تهمتُك وجريمتُك وعقوبتُك - أيها المسكون بها وراء المدى - عبقُ الأرواح، وعمقُ الكلمات.
- كثيرًا ما نُضطر إلى الاختيار بين يقظة الضمير وبين السلامة والأمان.. ترانا سنرضى عن أنفسنا إن نحن

خالفنا مبادئنا، وعطلنا ضمائرنا؛ تفاديًا لما يمكنه أن يمس بنا في غياب ذلك.. أم ترانا سنستطيع النظر إلى وجوهنا في المرآة؟

- ومازال الناس في عافية وأنت معهم ما لم تطالبهم بإنصاف.. فإن أنت فعلت؛ فإما أن تعود بهم وبالحق الذي معك.. وإما أن تفرغ يداك منهم والفؤاد.. ويغيض حقك في لجج ظلمهم وإجحافهم، واختيارهم إغماض العين عن القسطاس.
- ولأنهم لم يعودوا في حاجة إلى سقي الماء، كسروا الجرَّات.
- تمرد

لسعتها مرارة قهوتها.. سكبتها.. وقضمت قطعة سكر.

- سلام على الأرواح المثقلة بالأحمال، تلك التي تراقص الفرح، وتتقن العزف على أوتار الدهشة.. سلام على نور الوجوه، تلك التي تبدد عتمة قد استوطنت في قلوب العابرين، وتحمل حقائب الأوجاع عن المهاجرين، وتطارد رياح كانون تكنس غيمها عن السماء.. سلام على الرقي

على النقاء على بهجة الحياة، وترانيم الأفراح.

- لا يحسن أن يراك إلا من يتقن الإنصات إلى خشخشة روحك خلف جدار الصمت.

- قد تحتاج إلى من يقتسم معك ساعاتِ الحزن، يحمل عنك عبء السنين، أفكان الفرح ليعفيك من أن تكفكف أمنياتك في أن ينجب فرحتين؟
- سذاجة

"قالت له يومًا: - احمل حقائب الصدق وأنت مسافر إلي..!! ومن حينها وهو مشرد يتسكع في الطرقات.. رحيل يلقي به إلى رحيل.. وهجرة تهدي له هجرة.. ومن يومها وهي قرب الشباك ترقب تعثر خطى المارة تصدها.. تنتظر رغم كل شيء حقائبه المودعة.

- حينما سينزل عن صهوة الغياب؛ سيجد للحرف مليون عذر للجنون، ومليون سبب للهذيان، وفصوص دهشة.. وأيادٍ تحبك تمائم الحماقة.. ورصانة مازالت - رغم كل شيء - تلتمس للغياب أعذارَ الغياب.
- أعتى السجون أن تلجم العبرات الكلمات، وأن ينضب السيل فجأة فأعجز عن مجرد ردٍّ.. تسري في نسمات كلماتك يا ابنتي، فيخترقني معها الشوق.. أكفكف الغياب ببسمة كي لا تفشي لك دمعتي أنني مثلك أحنُّ وأشتاق.. أتحسس المشيمة والحبل السري الذي كان - يومًا - يغذيك مني، ويشعرني بالأمان أنك بالقرب.. أستعطفه أن يكفَّ عن

نخس كبدي.. وعن رجِّ نهرِ الدموع وبراكين الأشواق.. رضي الله عنك، وأرضاك صغيرتي، وأسعدك في الدارين.. يتيمة أنا في بعدك.

- الخريف يبعثر سر الذاكرة.. الورق الأصفر الذابل قسمة الرياح، لا حق له أن يشهد الربيع.
- البؤس هو ما يجعل كل مصنفات العالم، وكل قواميس الوجع تعجز عن توصيفه والبوح به.. فتتكرر المحاولات في بحث عن العبارة التي منها الشفاء.. وليست تكون.. أما الفرح، فلا يحتاج إلى أن تتحدث عنه.. يكفيك أن تعيشه.. وفقط.
- لحظات مستقطعة من الحياة، تلك التي تتابعها عبر نافذة القطار..

حكايات مبتورة، لا تحصل منها إلا على ومضة.. لقطات لا تعلم بدايتها وليس لك الوقت ولا إمكانية أن تعلم تفاصيلها، أو أن تعلم منها النهاية.. دفق نهر ليس لك منه سوى لون السماء فوق أديمه.. لا تسمع خريره ولا تستطيع بحال أن تنتعش ببرودته.. أشجار، مرورها الحثيث قرب أنفك الملتحم بزجاج النافذة ينسيك أن القطار من يحث المسير، وأنها ثابتة واقفة شامخة لا يغيرها ذهاب ولا يحنيها إياب.. عصفور يرتوي من بركة ماء لا يفزعه صرير العجلات..

ثعبان يزحف بين أكوام سويدٍ لا تعلم من ستكون ضحية سمِّه الزعاف.. طفل يجرُّ عربة، وآخر يلهو بغصن، وآخر يلوح بيديه الصغيرتين لهؤلاء القابعين خلف الزجاج.. تفاصيل صغيرة نمرُّ بها لكنها تبقى مجرد تفاصيل مبتورة من قصة لا نعلم بدايتها ولا إمكانية لنعلم منها النهاية.

- المطر الذي أخشاه قد رحل، نكاية بي.. ورّث جفوني قطره.
- لو ما كان للنوم من دورٍ سوى أن يحجب عنا التفكير؛ لكفى بها نعمة.
- أجمل ما في الحنايا أنها هوادج لأمنياتٍ ذواتِ خدور ضربن بخُمرهن دون المتلصصين، ولا حظّ للمستأذنين فيها ولو من وراء حجاب.
- بين الصمت وبين الهذيان.. مهرة تتشوف لعيون الفجر.. تطاول الذرى، وتمشُق لحاف الليل، وتستعير عبق الزنابق كي تدون بمداد الأنفة والشموخ قصة عنوانها : "حرة.. قد أعلنت الانشقاق والعصيان.."
- كان من الممكن أن يكون المنظر أكثر جمالًا، لو نبتت هذه الزنبقة أمس، أمس فقط وليس منذ زمن، لكان عبقها المتدلي من المشرفية أكثر ريًّا، ولكان لونها أكثر نضارة، وأكثر سحرًا لعشاق السحر.. لكنها قد نبتت منذ زمن سحيق، فاضطرها

الذبول ونهاية فرصتها في التضوع إلى الاحتفاظ بعبقها في شقوق الذكرى.. وأن يغيض طيفها في تفاصيل الأرض تنهي رحلة الجمال عضية تحت الفسائل أن تشطأ.

- احجبوا عني الغيمة التي اكتسحت اليوم السماء.. أبدًا لم تكن العداوة بيني وبين المطر، إنما أنا أخشى السحاب..

هل لي بمطر من غير سحاب؟

- سلوا القمر عن جمر الليالي، وعن نجمات شريدة تقطف الجمان من ترنيمة الحياة، وعن جذوة مشتعلة كانت تضيء الطريق لزنبقات عنيدة.. وعن القوافي، وعن النوارس، وعن الفوانيس، وعن العيون الساهدة.. وعن ظلٍّ بات يحرس الهطول من فيض الهطول.

- العودة.. استئناف لتفاصيل الحياة المتجاوزة بنزق السفر.. واستعداد للغرق في الرتابة.

- كانت نبتة ذابلة في بيداء الغربة والوحشة، حتى إذا ما صادفها المزن؛ نبت لها جناحان.. وحلقت ترشف القطر وتنشر العطر.

- سيقفون أمام واجهة محل الصياغة، وسينظرون لكل الحلي المعروضة فتنة لمحبي الجمال.. منهم من سيختار ذلك الطقم البسيط بساطة دراهم جيبه، ومنهم من سيختار ذلك الثقيل

الذي تصطدم به أعين كل المحذقين، وبشكل خاص أولئك الذين يملي عليهم ذوقهم بأن الجمال في كثرة الألوان، وفي ثقل الحلية، ولا أحد منهم سيساوم ذلك الخاتم الأنيق المرصع بجواهر دقيقة، وسلسلته الملتفة حوله كإكليل الندى.. منهم من لا يعلم قيمته أساسًا، ولا يدرك أنه من الماس الحر، ومنهم من يعلم قيمته لكنه يخشى على جيبه منه، ومنهم من يعلم أنه لن يطاله لذلك لا يساومه، ومنهم من يحب البهرجة الصارخة ولا يطيق كلَّ تلك الأناقة الهادئة.. وحدها عينُ خبيرٍ تستطيع أن تدرك ذلك التناغم بين جودة الصنعة وانتقاء التصميم، وقيمة الجويهرات المغروسة بإتقان في كل الطقم.. وحدها عين عميقة أنيقة تستطيع أن تدرك خفايا القيمة ومعايير الجمال.

- الرسم المعلق على الجدار ظننته لوحة.. سقطت منه قطعة، فعلمت أنه ليس إلا لعبة تجميع.. في اعتقادكم، ستصمد باقي القطع أمام الفراغ المحدث بالسقوط؟

كم سيلزمها من الوقت كي تتسرب قطعة قطعة؛ تلزم صديقتها الملقاة على الرخام البارد؟

- أتحايل على الضوء أن يصنعني ذرة.. علي أمرُّ دون أن ترقبني الحياة.
- متعبة.. كفأس عجوز لحطاب هرم، لم يعد يملك القوة لحملها، ولم تعد تملك الحدة لتقطع الجذوع.

- المشاريع التي فات أوانها، تأتيك حينما تقرر أن تأتي باهتة جامدة.. تصادفك متلهفة، وتتجاوزها مصقَعًا.
- استعضت عن السكر بالأحلام.. وارتشفت قهوتي خفية عنهم.
- ليلى التي كانت ستزور جدتها محملة بالفطائر وبباقة الزهر التي ستقطفها لها في طريق ذهابها؛ أرعبتها الزهرة؛ فقطفت ذئبًا.
- الريح التي تقتحم الأبواب.. هي نفسها من تغلقها.
- "غير عتبة بابك".. كم نحتاجها قاعدة في كثير من أمور الحياة.. مع أناس، رفعناهم فوق عروش حياتنا؛ فأبوا إلا أن يصيروا صخور عثرة يعطلوا منا الحياة. مع مشاريع، أعطيناها الأولوية وهي في الواقع لا تستحق الصدارة، أو أن نقتل لأجلها الأيام. مع مناهج، سارت عليها حياتنا، ووتيرة أبحرت عليها المراكب، وما جنينا من ورائها سوى التعب وأوجاع القلب. مع كل شيء لم يحقق طموحاتنا، ولم يفتح لنا أبواب السعادة والنجاح.

"غير عتبة بابك" فرصة لوقفة تأملية إصلاحية، ومناسبة لتغيير المسار.

- أعتى الحروب تلك التي تدخلها مرغما.. فلا أنت تروم حمل السلاح.. ولا أنت تريد انتصارًا.. ولا أنت بالذي يرضى بالهزائم.

- لا شيء،

غير أننا نختار أحيانًا كثيرة الاستسلام للرتابة؛ على أن نقاوم فنستعيد شغفنا بالأشياء التي نظنها تمنحنا السعادة.

- إدمان الحروب من كثرة إنهاكها لنا، تعلمنا الاستسلام، ورفع الراية البيضاء.

- مغبون ذاك الذي أوتي نعمًا ونعيمًا؛ فانصرفت بصيرته عن متابعة البركة والتيسير وجود ذي الجود والكرم سبحانه؛ إلى الأرقام والحسابات والتنصل من بقايا الأبوة.. موكوس محروم حسير مملق.. ذاك الذي أتاه الله زهراتٍ.. هنَّ عبق هذه الدنيا الدفراء، وشمعات متلألئات هُنّ منارة عتمة الأيام الكحيلة؛ فلم يرعهن حق رعايتهن، ولم يمنح نفسه متعة متابعة جمالهن وبراءتهن وضعفهن المحبب.. وبركة الأشياء حوله بسبب وجودهن في حياته وفي كنفه.. لزهرة برية شذية، وعصفورة بريئة شدية؛ أولى بالرموش وبالجفون من بؤبؤيه.. لكنه العمى.

- كل شيء حولك مكتظ.. قاعات الدراسة، مكتبك الطافح بأوراق الامتحانات، المقاهي الممتلئة بالهاربين من مواجهة الحياة، سلة الملابس المنتظرة حقها في امتصاص الشمس قرب حبل الغسيل، سلة أوراقك المهملة الممزقة بعد كتابة

جزء من رواية لا تعلم إن كنت ستنشرها، جدول لقاءاتك، قائمة المشتريات التي تنتظرك بداية كل شهر، فواتير الماء والكهرباء والهواتف والمدارس، حقيبة سفرك الأخير التي لم تجد بعد وقتًا كي تفرغها،

وقلبك المكتظ بالأمنيات المتجاوزة، وبالأحلام الموءودة، وببقايا الآلام المعششة كقبرة لا تنوي الغياب.

- رأت فيما يرى الرائي أن زنبقة كانت تحتضر، فطوق السحاب عنقها بجمان السماء فأشرقت وريقاتها ببسمة، وعبقت أريجًا وحياةً.. استفاقت على هزيم الرعد وصولة البروق.. كان المطر غافيًا، وكانت الزنبقة تغطُّ في موت زؤام.
- مُزنٌ قد أخطأ طريقه.. فسقى الصخر الأصم.. وقضى عمره ينتظر الطلع.
- لا أعلم لم تصر على أن تحتفظ بكل هذا الكم الهائل من الشمع، وهي تعلم أن التيار الكهربائي لن ينقطع!؟.. لم ينقطع قطّ مُذ قررت أن تصنع باقة زاهية من شموع، وأصرت على الاحتفاظ بها تحسبًا لأي طارئ.. لم تنقطع الكهرباء، لكن شيئًا داخلها قد انطفأ.. شيء لا يحتاج إلى شمع، ولا إلى مصابيح كي يستعيد وهجه.

- ولأنني كنت صامدة.. ولأنهم كانوا ينتظرون مني أن أحتضر؛ زرعوا شوكًا في حلقي، وسقوه علقمًا فهاجت النبتة.. كادت تخنقني.. لم أمت، لكنهم أقاموا سرادقات العزاء، وبكوا علي.. لا بدَّ في نظرهم أن أحتضر.
- ارتعشت أعماقهم من برد العواطف وصقيع الجفاء حولهم، فتاهوا يشحذون الدفء في وردة وثوب أحمر.. لم يعلموا أن عبق الورد لا تستنشقه الأرواح الظمآى، وأن الثوب المستورد لا يواري سوأة النفوس المكسورة والقلوب الجوعى الجريحة.. لم يعلموا أن الدفء.. كلَّ الدفء في اتباع نهج معلم الناس الإنسانية في أجمل صورها، والحب في أرقى معانيه.
- قالت له – يومًا – في حرقة.. والدمع سحّاح يكوي الجفون والخدود: – ألا يسعدك أن تكون زوجتك عميقة الفكر مرهفة الحس متوقدة الذكاء؟ ألا يجعلك تفتخر بها أنها الأفضل بين كلِّ من تعرف من النساء دينًا وخلقًا، وأدبًا، وحسن تبَعُّل؟ قهقه كأن لم يقهقه من قبل، ولا سيضحك بعد أبدًا، ثم انفجر ساخرًا: – وهل كنت سأشارك بها في موسوعة جينيس للأرقام القياسية؟
- لسنا في حاجة إلى تكريمكم يوم العيد العالمي للمرأة، كرمنا ربنا فسمَّى سورة من طوال ما أوحى إلى رسوله باسم

"النساء"، تحفظ حقوقنا وتنظم شؤوننا كزوجات وبنات، وأمر بالعدل والإنصاف والبر والرفق في التعامل معنا في حالة الاستقامة، وفي حالة الانحراف، وفي حالة الاستقرار وفي حالة المشاكل والمدلهمات، وأخبر عن صداقنا، وأمر بالرحمة في معاشرتنا، بل وحدد حتى أحكامنا في حالة الرق وملك اليمين، فبيْن حقوقنا المادية والمعنوية في كل أحوالنا الحياتية، وخصنا بسورة النساء القصرى لينظم حياتنا وحقوقنا وواجباتنا حال هبوب عواصف الفراق، فلم يدع حالة من أحوال المرأة حال الطلاق إلا وأخبر عنها وعما يجب في حقها، وأوصى بنا رسولنا الكريم.. حتى وهو على فراش الموت.. فاربأوا بأنفسكم، لسنا بحاجة لتكريمكم بخطابات عنترية، وكلمات معسولة تشي بمراميكم وتكشف أهدافكم.

- لعبتها المفضلة، إعادة تجميع الصور المفككة: تنظر إلى الصورة مليًّا.. تركز في تفاصيلها.. تحفظها تمامًا.. تبعثرها قطعًا صغيرة.. ثم تنطلق في رحلتها الممتعة لإعادة التشكيل.. تمزح مراتٍ بجعل الأنف مكان الفم، والعينين مكان الأذنين، ولربما جعلت رجلًا مقابل يد، ويدًا مقابل رجل.. تمضي السويعات تفكك وتعيد.. وتنتشي كلما أحرزت تقدمًا في المدة الزمنية التي تقضيها في ذلك.. لكنها يا للأسف، نسيت

مرة أن تركز في التفاصيل، فتاهت وهي تحاول التجميع.. مرَّ الوقت عليها بطيئًا كئيبًا، وهي التي كانت لا يعجزها فعل ذلك.. تكتمل في كل مرة كلّ الصورة إلا من موضع العينين.. تبحث وتبحث حولها عن القطعتين الضائعتين فلا تجدهما.. اهتدت أخيرًا إلى أن تضع مكانهما قصاصة بيضاء.. وأن تحتفل على كل حال بفوزها.

- الورد الذي اعتاد على الرحيل، سيلملم كل العبير، وسيهاجر كما تهاجر أسراب القطا؛ بحثًا عن بسمة في ثغر الشمس.."
- لكم نحِنُّ إلينا.. إلى الانفراد بأنفسنا.. بآمالنا وآلامنا.. لكم نحنّ إلى أن نقبع في زاوية منسية نفك ظفائر الأحلام المعطلة، ونسرّح ذبالات الأماني المبتورة، ونلوح لخطى الراحلين نودعهم دون أن نضطرهم إلى اعتذار، أو إلى تبرير.. أن نسند رؤوسنا على أكتافنا ونبكي في صدق.. أن نذرف دموعًا حرَّى دون أن نضطر إلى كفكفتها، والتظاهر بابتسامة صخرية تصد عيون المتطفلين، وتكفينا همَّ أسئلتهم وإشفاقهم.. أن نستمتع بضعفنا، وأن تكون لنا فرصة إيقاف الزمان في لحظات نوم ممددة دون أن نضطر - كما كلّ صباح - إلى ركوب نفس الرحى لندور معها كما حمار الطاحونة.. أن يكون لنا الحق في أن نأخذ حقنا ووقتنا في الحزن دون أن

نتذرع بما يحجب عنهم رؤية أجفاننا الذابلة.. أن نتنصل من كل مسئولياتنا، وأن نقفل علينا أبوابنا على حين غفلة منهم دون أن نضطر إلى تبرير أو إلى تقرير.. لكم نحنّ إلى الكائن المعطل الزاهد في المد والجزر في أعماقنا.. إلى ذلك الخامل المُمدّد على عقارب الزمان يشل حركة عبثه بنا.. لكم نحنّ.

- نصفك الآخر الذي يعييك البحث عنه، قد لا يكون سوى أنت في عينك أنت لا في عين من يراك.

- لا شيء،

غير أن بعض الأشياء الجميلة قد لا نجد غضاضة في أن نفقدها.. فقط؛ لأنه حمل ثقيل علينا أن نحافظ عليها.

- – "هل للنمل رئتان؟"

سألتني، كي تشبه لي كيف يتنفس الغرباء في ليلة معتمة قد حطمت الريح فيها متارس الأبواب، واستوطن الخوف.. والغربة.

- غيابهم يشعرنا باليتم.. لكن يكفينا أن نعلم أنهم بخير؛ كي نكون بخير.

- الضوء المنبعث من الشرفة، لا يعكس ظل من بالغرفة.. الأموات لا ظل لهم.

- كلما نقشت حرفًا فوق صخرة، مسحته الأمواج.. وشردت بقايا الصخر ريح عاتية..

الكتابة لا تليق قرب البحر.. يغار منها.

- كم تبدو مسكينًا وجميلا.. أيها المتشبث بأهداب الحياة.. تزرع الأمل فيمن حولك.
- الدنيا كذلك، ما شادَّها أحدٌ إلا هزمته.
- ويحدث أن تتظاهر بالقوة.. وأن تصدق زعمك؛ فيهزمك بيت شعر.
- لا أحب الانهزام، ولا يسعدني - أبدًا - أن أستسلم.. لكنني أمام الشر والانحدار والتطاول، لا أتحرج - أبدًا - من رفع الراية البيضاء، والاعتراف بأنني سأخرج مهزومة لا محالة من مثل هاته المعارك.. أحب التحدي وأحب المعارك اللطيفة التي تظهر فيها براعتي في أن أكون إنسانًا متلحفًا بتناقضاته، لكنه يجاهد ألا يغلب شره خيره، وأنني بذلك الخليط العجيب بين ضعف وقوة واستكانة وتحد.. فإن شممت أن في الأمر حربًا ضروسًا؛ سأضطر فيها إلى الانسلاخ عن مبادئي وعن إنسانيتي، وتقمص دور الساحرة الشريرة التي لا تفتأ تهدد بعصاها كلَّ من تصادفه؛ فإنني أفضل الاستسلام والانسحاب في صمت من غير كثير شوشرة، ولا عناد ولا انتقام ولا محاكاة.. أرفع بيد

رايتي البيضاء، وعيني تبارك لمن أراد الاستفراد بالشر، وتأهب للحرب، وجهز ترسانته بكل وسائل الهجوم، تخبره أنني لن أنافسه دوره، ولن أقترب من ميدان معركته، ولن أبادره، ولن أرد على هجومه؛ لأن دخولي في حربه تلك يعني الانهزام، وأنا امرأة تكره الانهزام.. ويدي الأخرى تجر حقائب الخيبة والخذلان، يمتزج صريرها مع زفرات أسى وحزن ودموع إشفاق على من يسعدهم أن يتلونوا، وأن يلبسوا بعدُ ثياب الرقة والطيبة لبوس القساوة والفظاظة والشر.. بيني وبينك أيها الشر.. حدود الله.

- بعض الأوجاع تأتيك على هيئة سؤال، وبعضها تحقنه في وريدك عبارة مواساة.
- لم تكن تخشى غدر البحر، ولا صولة الصخور.. كانت تخشى أن تهترئ الأشرعة، أو أن تخطئ بوصلاتها المرافئ.
- من وحي البحر

(1)

موج يردف موجًا، وحركات متتالية لا تكل ولا تمل.. يعلو ويتجبر.. يزمجر ويتذمر.. يهدد ويتوعد.. لينكسر قرب الشاطئ مويجات صغيرة تزحف ببطء؛ لتصطدم بالرمال الرطبة القابعة هنا مُذ ولدت.. تلتحم معها.. وذلك الذي

كان منذ لحظات فقط يفزع من حوله، ها قد غاض في حبيبات الرمل المستكينة.. امتزج معها ليصير مجردًا من اسمه الصارخ بالتجبر والعتو، منزوعًا من حروفه الثلاثة التي طالما أغرقت المراكب، وأفزعت الصيادين، ويتمت أبناءهم.. ليتوحد وشظيات الصخر المبعثرة.. فيسمى رملًا رطبًا.

(2)

حتى الأشياء المبهرة أحيانًا ماهي سوى تكرار مملّ للأشياء البسيطة.

(3)

وتلك المرافئ التي تحتفي بتمزيق الأشرعة، وبابتلاع حطام المراكب.. لا تستحق أن نكبد أنفسنا خسارة إبحارة إلى أعتابها.

(4)

وقفت أتأمله.. في مبعدٍ عنه..

أخشى الاقتراب.. فتفزعني زمجرته..

أريده أن يبقى في عيني - على كل حال - جميلا.

(5)

سألت البحر أن يقترب كي أنثر حوله قليل بوح.. ابتسم وأناخ بالقرب ينتظر ساعة انتشاء.. تدفق الكلام حثيثًا يتدافع من شرياني يروي له ذاك الذي ناء قلبي بكتمانه.. تنحنح..

زمجر.. ارتعد ثم رحل.. ثقل صدره بأحمالي.. فولى جازرًا منحسرًا..

ما ناء بحمله جيدُك أنت، أولى بجيد غيرك أن ينوء به.

(6)

موجة عملاقة تتكسر قرب الشاطئ مويجات صغيرة، لكنها في كل مرة تقتحم حيزًا جديدًا، وتتقدم بضع خطوات تخترق الرمال.. وكلما اقتربت، أرغمتنا على التحسب وعلى أخذ الحيطة كي لا تبلل متاعنا.. ومن تهيب المويجات.. فليبتعد فالموجة الكبيرة كثيرًا ما يستهويها أن تتبرج بكل عنفوانها للمستمتعين، ولا تنتظر أن يلملموا أشياءهم قبل أن تقتحم الرمل.

(7)

قطرة من أحزاني أيها البحر.. تُصَيِّر ملحك علقما.. وأنا إن قررت يومًا الفرح.. جعلتك تكف عن مدٍّ وجزر.. والملح الأجاج صَيَّرته عذبًا فراتًا.

- قالت: ألم تعرفني بعد؟ أنا النار التي يتحلق حولها الفراش والجنادب.. تابعها مشدوهًا منتشيًا أن نعتته بالفراشة، ولربما سوّلت له نفسه أن يتخيل ألوانه وجماله وخفة تحليقه.. ونسي في رحلة انتشائه أنها سمت نفسها نارًا.. استرسلت: ثم لا يلبثون أن يتساقطوا فيها.. فيتلظون في لهيبها.

- حينما كانت صغيرة.. وكانت تبكي مما يبكي منه الصغار عادة، كانت تكفي من حولها عبارة بسيطة مستفزة كي تقلع فورًا عن البكاء.. وحدها كلمة "مسكينة" كانت كفيلة بجعلها تصمت وتمسح عبراتها عن وجنتيها المحمرتين الصغيرتين، صارخة: "لست مسكينة، لا تقولوا عني مسكينة!" كبرت الصبيّة، وشاخ الطفل الذي في أعماقها، لكنها مازالت تكره نظرة إشفاق أو عبارة توحي بالعطف والتأسف على حالها.. ومازالت كلمة "مسكينة" تخدش قلبها، وتؤجج في أحشائها براكينَ الثورة.. توقظها من خمودها، وتوقظ معها تلك الصرخة التي كبرت داخلها كما ينبت العشب بين نتوءات الصخور : "لست مسكينة! فكفوا عن إظهار عطفكم وتأسفكم !"
- السعادة اختيار.. أن تجعل من كلِّ اللحظات البسيطة فرصتك للانتشاء.. تنظر من نافذة القطار، فترى السعادة ترقص بين الأشجار الراكضة الفارَّة تحت عينيك.. في متابعة البنايات المتزاحمة المترامية على أطراف المدن.. في رؤية ذلك الطفل الذي يذود عن غنمه.. وهو يسوقها عند الغروب.. في الشمس التي تطل من بين أسمال السحب المنتشرة في الفضاء.. في متابعة مسيرة قطرة المطر المتزحلقة على زجاج النافذة بالقرب منك.. في لحظة

انكسار ذبالة الشمس خلف رداء الليل المهيب.. في رؤية دخان فرن تلك القروية البسيطة التي تأهبت لإحضار خبز المساء.. في تطلع عينيك للنخل السامق المنتثر في محطات القطار.. في رؤية ذلك المهر الأبيض الوديع وهو يتبع أمه لا يفارقها.. في وقفة أمام البحر تتأمل ملكوت الإله.. في متابعة حركات الموج المتتالية التي لا تكل ولا تمل.. تنظر إلى طيور النورس الحائمة فوق المراكب، فتستبشر بأن في حملها رزقًا وفيرًا قد دلَّت عليه الطيور.. في تأمل تلك الصخرة القابعة في أحشاء اليمِّ يؤنسها مد وجزر.. في لقاء مع ذوي الأرحام تبادلهم الأحاديث المنعشة وتستحضر معهم عطر الذكريات.. في دردشة شفيفة مع الأصدقاء.. في عزلة عن كل من حولك تغوص في آي مولاك تأملًا وتدبرًا.. في جولة بين أروقة الكتب فيهتز قلبك لرائحة الكتب المنعشة ولظفرك بذلك الكنز الذي عثرت عليه، وأنت تبحث عن غيره غير مصدق حصولك عليه.. في جلسة أمام شاشة حاسوبك تتابع تتطقس أخبار إخوانك، وتتابع بشوق ولهفة منشوراتهم التي أخَّرك عنها انشغالك، وتقرأ رسائلهم اللطيفة وقد انتبهوا لغيابك يسألون عنك..

وفي خلوة وقلمك تبعثر ذاكرتك حرفًا شفيفًا تترجم به رحلتك البسيطة في البحث عن السعادة.

- لست تتطلع للمستقبل، تتركه لحينه؛ كي لا تنشغل عن حاضرك به.. وقد أغمضت عينيك عن الماضي أيضًا؛ كي لا يلهيك عن لحظتك الراهنة، والرجوع لفتح ملفاته الآسنة لا يفعل أكثر من نكءِ جروحك وتذكيرك بخيباتك فيه.. أنت حكيم، قد قنسرتك الحياة، وجعلتك أكثر مهارة، وأكثر حنكة في تحديد زاوية رؤيتك، والانشغال بما في يديك عما مضى، أو عما يرجى أن يكون.. حكيم رصين بالقدر الذي يجعلك تتوحد واللحظات الآنية كي تقيما سرادقات عزاء على واقعك وحاضرك الذي ليس لك منه شيء.. تبكي بحرقة، وتلتاع بكل ما فيك من لوعة، وتمضي الساعات والدقائق لا تفعل أكثر من الانهماك في الحسرة والأسى أن حاضرك امتداد لماضيك المفرغ من النشوة ومن الفرح، وأن مستقبلك لن يكون أفضل حالا.
- تشرين الذي يستبشرون به؛ يفزعني.. ويفزعني غيمه وظلمته ووحشته، وصولة رعوده، ووفود زمهريره.. دموع السماء فيه تلملم بنات الشجر المنكسة فوق الرصيف البارد؛ تصارع رعشة الخذلان بعد أن لفظتها أمها بعد طول عناق.. وتطرد الشمس عن عرشها بعد طول ألق وسؤدد.. فيا غيم تشرين الحزين، يا طلة الشتاء المفزعة بعد وهج ودفء، لمن

أقول بعد اليوم "شمس"؟ وأنا المزروعة في خيوط نورها.. لمن تحكي زنبقتي حكايا الصباح؟ لمن ستسكب عطرها؟ والشوق قد بعَث رسائل الحنين، تُشجي ليلها الحزين.. لمن تبث زنبقتي شوقها؟ يا نسيج المزن المتربص بالمطر، الجاثم فوق صدر السماء، الماثل بين أصيص نبتتي، وحكايا الفجر الجميل.. يا أيها الغيم.. وراءك - أردت أم أبيت - خيوط شمس.

- امرأة تتحدى الأزمنة وتغالبها الفصول.. لا شمس الهجيرة تجفف بقايا الغيم المستوطن في أحداقها، ولا الخريف يسقط أوراقها يبعثرها بنفخة ريح العشي، ولا الشتاء يغرق فسائل أحلامها يدفنها في أكوام الطين.. ولا الربيع بقادر على أن يجعلها تنبت كما ينبت العشب في المراتع والآكام.
- من بين عبق الكلمات المحتبسة، ومن بين العوارض، أستل لحنًا جديدًا للأحلام أستمع إليه على مهل.
- عبق الربيع يناوشني؛ أنا المسكونة بالشمس.. زرقاء يمامة هذا المساء، أرى ولست أريد أن أرى سوى تباشير الربيع أرمقها تتهادى بين زهر البرتقال، وشذى الأعطيات وترانيم العنادل.
- أبسط من أن تتفرد، وأعقد من أن تتكرر.. هكذا هي النجوم في عين المساء..

كل ما تحتاج إليه، أن تثق في حدسها وذوقه، وأن تمارس حقها في أن تتساءل:

"أمازلت أضيء سماءه؟"

- أترين ياصديقتي هذا الورق الذي يبتلع حرفك؟ كان يوما لحاء، فصيرته رغبة الإنسان المجنونة في تدوين الأشجان وبعثرة الأفكار رقعا تسجن الذاكرة..

مقامات الجمال.. ومعارج الكمال

- ستورق في الروح معاني الآيات حقيقة ومكاشفة، إن كان الإقبال عليها إقبالَ الظمآن بحثًا عن رواء الروح المجدبة، لا لهث الزاهد في الأنوار المحتسب عدد الختمات.
- التدبرُ تحليقٌ بالكلمات من مادتها إلى روحها.
- وكم تألف هذه النفس ما حولها، وكم تضيع حقائق الأشياء وعمقها، وتغور المعاني في لجج التكرار والإلف والعادة.. فلا الصبح يبعث في الروح بخيوط نوره مشاهد الجمال، ولا الليل يرسل فيها مشاهد الخوف والسكينة، ولا الجبال تحرك في النفوس مشهد العظمة، ولا ألوان الفراش ولا شذى الزهور، ولا شدى الطيور، ولا ترنيمة الرياح، وعزف الرعود؛ يحرك الوجدان طربًا لمعاني الجمال، والكمال، ودقة الصنع..

نعتادها من كثرة ما نراها، ونألفها لكثرة ما نحياها، ولا محرك لتأملها وتحريك الوجدان لها إلا بتأمل عميق في الملكوت وآيات الله الكونية، وتدبر دقيق وإعمال للفكر في كتابه الحكيم..

فهل جربت أن تسمو بهمتك من قراءة الحرف واحتساب العشر حسنات عليه إلى أجر التفهم والتأمل والتدبر؟

هل جربت أن تشرع مراكبك.. وتهيئ حقائبك، وأن تسافر في أنداح السكينة والرحمة ومنة المنان؟ أن تحلق بأجنحة من نور إلى عوالم النور وكواكب الغفران، وقناديل الذكر وكلام الرحمن؟

أن تجعل من كتاب الله بوصلة تحدد لك معالم السبيل، ونبراسًا يضيء لك عتمة الحياة المجبولة على الكدر، يقوّم ما حاد من الأفكار وما حنف من السلوكيات عن الطريق الواحد الممتد الطويل، ويهذب شعث الأخلاق ومارقها.. وتستنصر به على الأمارة والهوى، وتستغيث بالحياة الكامنة في آية من موت الأرواح على مقصلة الغفلة والتسويف والعادة.. أن تجعله الدستور الذي لا يحيد عنه إلا هالك، تستشعر خطابه لك، وبأنك المعني في كل أمر وفي كل نهي.. تستجيب لنداء "يا أيها الذين آمنوا" وترعوي من الزجر والنهي والوعيد، وتشرق نفسك مع كل وعدٍ جميل بالغد الجميل في رحاب الجنان.. تمني النفس وتأمل في مَن وعدَ.. وصدَّق عبادُه وعدَه.. يقشعر منك الجلد لذكره سبحانه، وتذرف المآقي لآلئها، ثم ما تلبث أن تلين وتتنفس السكينة والطمأنينة.. تتجول في أفانين اليقين ومروج

الثقة وبساتين الرجاء.. تمرض فتهرع إلى آية وإلى قصة أيوب تتلمس من بين الحروف الرجاء والطمأنينة والثقة في قدرة الطبيب الشافي، وتضيق بك وتظلم في عينك وقد قاربت من الإياس، فتهرع إلى قصة يونس تتربص بخيوط النور المتسللة من بين الظلمات الثلاث، وتتوالى عليك الملمات والمصائب، فتسارع إلى قصة يوسف تصعد مع خطاطتها وتنزل بين فرج تتبعه شدة، وبين شدة ليس لها من عاقب إلا الفرج.. تنظر إلى الدنيا ومتاعها الذي لا يعدو أن يكون حطامًا تذروه الرياح، فتتخيل الصورة فتسارع إلى الرضوان.. وتختار الباقية على الآفلة الفانية.. وتنظر إلى مآلات صراع الخير والشر والكفر والإيمان والاستجابة والعصيان؛ فتدرب النفس على موازين الحق، وتمرسها على العمل وعلى حسن الاختيار.

هل جربت أن يؤذَّن في روحك أن أقبلي، فهذا كتاب الله، فماذا أنت صانعة فيه، ومعه؟

فقم، أيها الشارد السادر في الغفلة، وامسح عنك الوسن، واغتسل بدمعك وبعطر كلام الله، واستجب لداعي الشرف وباعث إقامة حكم الآي وأمره قبل إقامة حرفه.

استفتح من الله، واسأله المدد.. رتب حقائبك، واحجز مكانًا لرحلة آمنة بفضل الكريم المنان إلى تدبر كلامه.

- هذا الذي أقام الله قلبه وجوارحه يدل الناس على الخير ويهيئ لهم معارجه، ليس بسالم - إن لم يتفطن - من منٍّ خفي يحاسب به من وقفوا يومًا ببابه؛ أن لم يكافئوا إحسانه بإحسان.. يروح متطوعًا، ويغدو جزِعًا أن منعوا عنه دوام شكره، أو ألهتهم الحياة عن طرق أبوابه سؤالًا عنه.
- الأرواح المكشوفة للعابرين، المسلَّعة للنفوس الخزفية؛ تقبض قبضة من براءتها فتنبذها، وتتسور محاريب ضعفها فتنشرها، وتتوكأ على منسأة طيبتها فتكسرها فتخر الروح، لا من يدل على سقوطها، ولا من يقيمها إذ سقطت..

فيا عابري هذي الحياة المرصفة بخزف الطين، دثروا أرواحكم عن العابرين، وتخيروا لها المساكن تستودعونها بها آمنين.

- يدك التي عجزت عن الدرهم والدينار تسعف بها المتحوجين، ارفع ضراعتها يسابقها قلبك لواسع الرزق مجيب الدعوات أن يرزقك ويرزقهم.. قد تربت اليد وما افتقر اللسان.
- روحٌ صفَّدها الكبر، وسلسلتها المرايا، وخزنت صورتها صفائح البرك النرسيسية، لن تستطيع أن تطالع أبعد من وجهها، ولا أن تتضوع من نسيم الرحمات.
- براءة من حظ نفسك دعاء لهم بالغيب.. تنسى مسألتك، ولا تذكر سوى حاجاتهم.. فاحشر نفسك متدثرًا بزمرة من تطلعوا

إلى نفحات العفو.. وأنداح العافية، وتشوفوا لكوثر الهداية، ومن لزموا معارج الكمال يسألون ربهم فيؤتيك من كل خير سألوه، لائذًا من فقرك كما لاذوا، سائلًا بما سألوه (اللهم اهدنا فيمن هديت، وعافنا فيمن عافيت، وتولنا فيمن توليت..)

- قلوبنا المثقلة بالأحزان، إن لم نسر بها بقطع من الليل نسجدها للكريم واسع العطاء؛ فلن تدرك الفجر.

فيا أيها المنتظرون تربيتة من حبيب أو مواساة من قريب.. يا من مدُّوا أبصارهم لمن حولهم يتشوفون لكلمة تثني عنهم الأحزان، أو لمكالمة تبارك أو تعزي أو تسأل لكم الفرج والسلوان؛ اعرجوا بها إلى ذي خزائن الجود الرزاق الكريم الوهاب فارج الكربات.. هناك كلؤكم، وهناك ولايتكم، وهناك سكينة القلب واستعادة وهج الحياة.

- وبي رغبة عارمة في هذه اللحظة أن أنظر إلى السماء من أقباء الحرم، وأن تختلج عبراتي فأمرغ بها الأرض تحت جبهتي، وأبكي.. وأبكي دون أن أضطر إلى مسح مدامعي لرؤية من بالقرب.. أن أبث كل ذاك الهم الجاثم فوق أنفاسي، وأن أسأل واسع الفضل ذا الخزائن من خير ما عنده.. أن أنبعثَ من دمعة.. وأن أنبثق من سجدة.. وأن أولد من دعوة.. أن تهيم روحي في اغتسالها من أدرانها، ومن الوحل الذي يشد منها المسير.

- أولئك الحريصون على أن تزهر قلوبنا.. المتألقون في إخراج أجمل ما فينا بأجمل ما فيهم.. كم حياة نهديهم لو كنا نملك أكثر من حياة؟

- إن لم يحلق في سماوات الجمال، ويضرب بجناحيه في سحائب الكمال.. ما سمي حبًّا.. وهل الحب سوى عطرٍ يحسن أن يحلق، وأن يداعب مزينات السماء؟

- أكثر ما نخشاه من الوجوه، تلك الصلصالية التي تغيب عن قسماتها القسمات، وتتهجى فيها بمشقة حروف الحياة.. تلك التي لا ترى أبعد من المادة ولا تسقيها الروح بما يصنع حمرة خجلها ونزق فرحها.. وتمنحها تأشيرة معانقة الجنون، وعودة القلب إلى صباه.. تلك التي ما علمتها المضغة القابعة في أحشائها كيف تغزو القلوب.. كيف تحن فتئن السماء لحنينها.. وتذرف الشوق دمعات ولوعات.

- لله در من آوى إلى الظل، وتوارى عن الأبصار، واستعصم لما راودته نفسه تريد أن تذيقه طعمها.

- وهل تمايز المؤمنون إلا بأخلاقهم وقلوبهم؟ فأما النسك والعبادات، فأمرها بيّن، ويشترك فيها المؤمن والمنافق، بل ويحقر أحدنا صلاته أمام صلاة أقوام.. قد فسد تصورهم، وخلقهم، لكنهم ظلوا أصحاب عبادة.. هي الأخلاق والقلوب إذًا لا

غيرها.. فأما القلوب، فسرائر: خبيئات أو دسائس، وهي لنا أو علينا نحن ابتداء وانتهاء.. وأما الأخلاق فهي رسلنا لمن ولّانا الله شأنهم، أو لمن قدر علينا جوارهم، ومغارف قلوبنا، ومرايا أرواحنا.

- الطيبون، أولئك الذين يثخنون أرواحنا دهشة، ويجعلون من النجوم مراقي تصطفق فيها أجنحة الطفل المحلق من بين الحنايا ينشد الأنوار.
- تصخّر قلب من تاه عن محبة فيه وله سبحانه، ولرسوله عليه أفضل الصلاة والتسليم، ونصبت عناكب الجفاء والغلظة شعها في تفاصيل روحه.. مرّ طعم الإيمان في حلقه، علقم وجوده بين ظهراني الحياة.. نار الوحشة ينفثها كتنين، فيحترق بها قبل أن يحرق غيره.
- سيورق القلب ويضيء.. بقدر انكساره لله، ولوذه بحماه.
- أرقهم قلوبًا؛ أسرعهم توبة وأوبة.
- ومن علم أن ربه الشكور.. غضَّ بصره عن مطالعة ما بيد الخلق من إحسان.. إن شكروه؛ ذكَّروه بشكر ذي المنة الذي كان منه الإحسان ابتداء فهداه إلى ما ينفعهم.. وإن جحدوا، فربُّه الشكور.. يعطي الكثير على قليلِ ما كان منه لهم من نفع وإحسان.

- صاحب من يحسن أن يحب الحياة، ويحسن أكثر أن يكون عابرًا لا مستوطنًا.. من يجعل من خزف الدنيا مرقاه إلى الإله، وإلى حيث الراحة السرمدية، لا ملاذه ومستراحه، وشغف قلبه في العاجلة.. من يحسن أن يذكرك إذا زللت أو نسيت، ويحكم قبضته على كفك؛ كي يعبر بك معه إلى حيث ملقى الله.
- والعبد بين متابعة منة المعطي حينما يمنح، وجوده حينما يلهم الشكر، ولطفه حينما يمنع، وجوده حينما يهب الصبر والقدرة على فهم معاني اللطف، وبين متابعة منته بالهداية ابتداء ومشاهدة الستر إذا ما زل وسقط.. متقلب بين معارج "أبوء لك بنعمتك علي"، ومقامات "وأبوء بذنبي" ومفاوز "فاغفر لي".. قد رفع جبينه في الأولى ناضر اللسان، طري القلب، يُرى إبطه من استطالة يديه، يستعطي ذا الخزائن، ويرجع المنة لمن جاد وأعطى، فكانت اللام وكاف خطاب الشرف اعترافًا بتفضل الجواد، ثم ها هو ذا يعود في الثانية حسيرًا أسيفًا مطوقًا بضعفه محاصرًا بخطيئاته، لا يرتفع له طرف إلى ربه من سوء فعاله، ولا يملك - حياء - أن يخاطبه سبحانه.. يحمل بين كفيه ناصيته الخاطئة، وسجل زلاته ورعشة ندمه، يستوهب ويستجدي.. وقنديل توبة في جنبيه رغم كل شيء

لا يخبو.. وحشائش روحه في بيداء تيهه تخشخش: (فاغفر لي فإنه لايغفر الذنوب إلا أنت).

- ومن علم حق العلم أنه عبد مملوك لرب غني، لا يزيد في ملكه عبادة وامتثال، ولا ينقص منه معصية وهوان، أورثه علمه ذاك انكماشًا في ذرات روحه يطلب السلامة، ونظرة رضا من ربه وقبول، وصرفه عن الرياء والتسميع، وطلب الاستحسان في عيون المارة.. فأسدل ستائره على نيته وسريرته وخبيئته.. يخشى عليها نظرة إعجاب تحيلها عُجْبًا.
- يعرج بقلبه عن نثار الصخور البشرية وأكوام الأشواك النابتة حوله في بيداء هذه الحياة المادية.. "فيكم ولست معكم"، هكذا يطل عليهم من شقوق روحه، ويدخل عليهم من حين لحين كي لا يشعل بنأيه نيران حنقهم فتسري في هشيمهم، فيلفحه لهيبها وتمتشحه بسعيرها، ولا يمتزج بهم كل الامتزاج فتصيبه لعنة الصخر، وثبور الأشواك، فتتشقق روحه لتكلس أرواح حوله قد أشقاها هجر الأنوار.. هكذا هو.. مذ عرف أن المد والجزر وسيلة البحر كي لا يغرق في الثبوت وفي الرتابة.. وهي وسيلة صاحبنا أيضًا؛ كي لا تنصهر روحه فتتشكل صخرة أو عوسجًا.. وكي لا يغيب بالكلية فيكون الغياب فتيل أحقاد وأضغان..

يروي جدب أرواحهم ما قبلوا رواءه، ويتسلل إليها تسلل النور من ثقب في جدار.. ثم ينسحب خلسة عنهم، لا جعجعة خلفه ولا نثار غبار.

- قد حاز الاصطفاء وبلغ مراقي السماء.. يوم أن عاد قلبه طفلًا يَنشُد البراءة والنقاء في خفقة ضلع.
- أَحَب الليل.. وهو المسكون بالنور؛ لأن فيه من سكنها وسكونها.. وأَحَب المطر وهو المهووس بالشمس؛ لأن فيه خصلة من خصالها هي الهطول.. وأحب البرد؛ لأن دفء قلبها يهزمه.
- هي أشياء.. تحتاج إلى من يتذوقها.. لا إلى من يكتال.
- هي أشياء خالدة، عبقها لا يمحل، وسحرها لا يأفل.. فإن أنت استطعت أن تسكتها فيك؛ فاعلم أنها لم تكن، ولم تحط بعد الرحال.
- هي أشياء، تجعلك تعلم من أنت.. ترضيك عن نفسك، فتنتشي أن روحك بذاك الجمال.
- هي أشياء، لا تعترف بالصولات ولا بالبطولات، وليس الاستسلام فيها مرادفًا للهزيمة.. قواميسها لا تعترف بالشروح ولا بالمرادفات، إنما بمعايير الجمال وصفات الكمال التي تشي بعمق كنهها.. وعمق كنهك بها.. هي أشياء لا تفسر.. وإن أنت

أزمعت تفسيرها، أوغلتها في الإبهام، أو عطلت لغة التعبير، وفككت الكلمات، وجردت الحرف من معانيه.

- مشكاتها لا يوريها سوى الزهد في العابرين.. والاكتفاء بمن استوطن في الأحداق، وفي الشريان.
- هي أشياء، إن لم تلملم شتاتك، وترتب فوضاك، وتنبهك إلى إنسانيتك، وتسمو بك نحو الرقي والجمال، فما داعبتك نسائمها، وما استنشقت عبقها.. وإن ريحها منك لعلى مسافة سنوات ضوئية.
- هي أشياء لا تلقَّن.
- هي أشياء تكره التكلف والتصنع.
- هي أشياء لا تقبل الشرح والتشريح والتشبيه.. من انبرى للتنظير لها، ووضع الحدود والتعاريف، ما عرفها.
- إن اقتربت كثيرًا قد يلسعك لهيبها، وقد يخنق منك الأنفاس، وإن غادرتها وابتعدت كان منك الحنين لدفئها ولنورها.. وهي مع كل ذلك أشياء لا تقبل بالبين بين، ولا تعترف بأنصاف الطرقات.
- هي أشياء..

يقتلها الكبر والأنانية.. وتنسفها اللامبالاة.

- ولَنفس مجبولة على الإلف، وعلى الاعتياد لما يحقق دعتها وكسلها أولى بتعويدها على ما يعرج بها إلى أنداح النور، ويرتقي بها إلى مفاوز السكينة.. فإن سيقت إلى أسرار الأسحار، ومراغم السجود وظلال الأذكار الوارفة ستذوق.. ومن ذاق عرف، ومن عرف ألف، ومن ألف فاز بترويضها وبنسائم القرب والمعية.
- تنكمش الطريق، وتمد السماء بالأسباب والمعارج لقلب طرقته المحبة، فصار يتلمس الجمال والكمال بخفقة.. وما شقت طريق ولا طالت على ضلع اهتز عرشه بسحر النبضات.
- جمال المحبة في الإغضاء.
- ستكون جميلًا إن أغضيت عن العيوب، وكان منك الصبر عليها.. وستوقن أنك تتضوع جمالا، وتتنفس حبًّا إن رأيت العيوب محاسن، واستمتعت بها تمامًا كما تستمتع بالنعم.. ولن تعدم حينها سعادتين: لأنك محب.. ولأنك بذاك القدر من الجمال.
- ما رأيت ودودًا مشفقًا أسيفًا يخفض الجناح، ويغتسل بالجمال، ويضوع من حوله بمسك كلماته، ويمطرهم سكينته ووداعته والرحمات، ويعرفهم ربهم الرفيق الرؤوف، ويطيل

المكوث بين مقامات المحبة، إلا علمت أنه قد اغتسل من عضيات الطين، ونهل وارتوى من نور ربه البر الودود الرحيم، وساحت روحه في ملكوت الصفات، وتضوَّعت من عبق الأسماء، وسرت كنسمة تتسرب بين الخلجات، ففاضت بالمحبة والرحمات، ووزعت بسمة يذرفها قلبه، فينتشي الفؤاد للسماع عن ربه الجميل.

ظل الختام

هو الحرف نستذري في أفيائه، وتستظل الروح تتدثر به، تارة خاشعة مستكينة، تسأل الأمان في المعاني، والأمل في فلسفة الحياة، وتشحذ الجمال في نبرة صوت.. وتارة صاخبة متمردة، تبحث عن صولة الكلمات وسطوة الحبر؛ كي تسقط مملكة الظلم والقسوة والخذلان، وتشجب الظلام وتفك شفرة الروح العالقة في شباك الأحزان، وأحبولات الشك، وشُرك الأوهام، وضراوة الواقع.

وتارة تداعب صدى الأمنيات.. توجع الذاكرة الخاملة.. تستفزها كي تسترجع جواز سفرها، وتهيئ حقائبها كي تسافر، حيث المزينات تداعب رذاذًا يتحين الرسّو على وجنات جورية نعسى.

نصنع خرز الكلمات، نرصُّ في سمطها كلَّ ما يقال.. عدا ذاك الذي ما نسقطه سهوًا، ولكن يضيق الحرف بالمعاني، فنترك للصمت وللتخفي أن يذيع سر الكلام.

ولكتاب بدئ باقتحام، حريٌّ أن يترك فيه للقارئ مسك الختام، فإما أن روحه قد وجدت في حرفٍ تائه بين ثنايا الكلمات رواءً وأملًا

ومواساة ودرسًا من دروس المجبولة على الأكدار، يتبلغ به أو يسقي روحه، أو يمسح به دمعة نزَّت من روحه قبل عينيه.. وإما أنه تاه بين الحروف، وابتلعته المعاني، وبعثره شوك الحقيقة، وفقد بوصلة الرجوع، فلا أملك إلا أن أقول له:

" لك الله.. رحمك الله..".

•

الفهرس